يليان فى الأندلس

تأليف

أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى

الثمن ١٥ م

مايو سنة ١٩٣٩

مطبعة العدل بشارع كنيسة الأمريكان بالأسكندرية





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمــــــد أشرف المرسلين خير من دعا إلى مكارم الأخلاق وتحلى بأحسن الصفات وعلى آله وصحبه وسلم . أما بعد فهذا

إهداء القصة

إلى الذين أحبهم وأخلص إليهم ويخلصون إليّ أهدى قصتى هذه خالصة فى سبيل الله وحب الملك والوطن حفظ الله جلالة الملك فاروق الأول وأيده بروح منـه وأعزه وأعز الوطن به إنه سميع مجيب ؟

احمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى



كتاب العالم الجليل نصير العلم والأدب

حضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون



حضرة الأستاذ عبد المنعم أفندي الحلواني

أهديت إلينا نسخة من قصتك المسماة .. يوليانة في الأندلس ..

وقد وجدنا فيها أحد أبناء وطننا جديرًا بأن [illegible] الأقوال التي [illegible]

قد أفرغت في قالب شيق ومن ملحقاته بمصطلح وتخلل مواد شرحها بالعجيبة بحوث

قيمة في الآداب والأخلاق والدين فإليك شكرنا على هذا الصنيع وثناؤنا على

اضطلاعك بهذا الوضع البديع ،،

عمر طوسون

١٤ / ٥ / ١٩٢٩

كتــــاب

حضرة صاحب السعادة القانونى الضليع والادارى الحازم محمد توفيق رضوان بك مدير البحيره .

عزيزى الاستاذ الحلوانى

تناولت قصة (يليان فى الأندلس) فما بدأت قراءتها حتى انتهيت منها فى ليلة رغم مشاغلى الكثيرة ، فعلت ذلك مسرورا مرتاحا ، وأنا الضنين بوقتى فلم أعتد قراءة القصص ، ذلك لأنى كلما تابعت قراءة القصه كلما إزددت إعجابا وتقديرا للكاتب الذى أفرغ صور الحيـــاة التى كانت سائدة في بلاد الأندلس وانتهت بالفتح العـــربى في قالب قصصى بليغ ، وفى أدب رائع يؤدى بالقارىء إلى استخلاص العبرة التى توخاها ، وهي أن بلادا تفشت فيها الفرقة والانقسام واستبد بها الحكام مآلها الانحـــلال والفناء والارتماء في احضان الاجنبى الذى يتوخى الفضيلة والعدل

وما كان لطارق بن زياد أن يفتح بلاد الأندلس بقـــوة

جيشه المادية وعتاده ، لو لم يكن رجاله مزودين بقوة الايمان واليقين ، ولو لم يكن قد سبق الفتح دعاية صادقة لما اتصف به قومه من قيام على الفضيلة والعدل ، فنصر الله الفضيلة على الرذيلة ، والعدل على الظلم ، فالعدل أساس الملك ، وما النصر إلا من عند الله ؟

محمد توفيق رضوان

٢٤ مايو سنة ١٩٣٩ — مدير البحيره

كتاب أستاذى العالم الأديب حضرة صاحب العزه الاستاذ عبد الله عفيفى بك الأمام الخاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

أخى وصديقى

سلام الله وتحيته عليكم . وبعد فقد تلقيت كتابك القيم « يليان فى الأندلس » ويسرنى أن يظفر الأدب بهذه القطعة الفنية الكريمة .

ولعل من جميل فضل الله عليك أن يهيئ لك بين مشاغلك الكثيرة وقتا ترعى فيه دينك وأدبك .

وأرجو أن يتوج الله هذه الجهود الصالحة بالرضا والنجاح .

ومنى إليك مع أمثل الشكر وأسعد الأمانى أفضل التحيات ؟

المخلص

٢٢ مايو سنة ١٩٣٩

عبد الله عفيفى

تقـــــديم

للأستاذ الدكتور ابراهـــيم اللبان
مدرس الآداب بكلية دار العلوم

لم يتنبه الجمهور المصرى بعد إلى ما ينطوى عليـــه انتشار القصص الفنية وغير الفنية من مشكل اجتماعى خطير ، فلا يزال أكثرنا يعد القصة لهوا بريئا لا يعدو أثره أن يقضى المرء ساعة أو ساعات فى غفلة عن متاعب الحياة وآلامها ، وقليل من شبابنا المتعلم من درس أثر القصص فى التفكير العام وتكوين العاطفة والخلق .

لن أحاول الآن استقصاء أثر الفن القصصى فى المجتمع ، بل ساجتزئ بالاشارة إليه والتنبيه على خطورته ، وأحيـل من يريد استيعاب هذا الموضوع الكبير إلى ماكتبه عنه أفلاطون فى جمهوريتـه ، وإلى ما كشفت عنه مباحث علم النفس التحليلى من دقائق وتفصيلات .

من الوقائع التى يستطيع المرء أن يشهد صحتها فى تجاربه

الخاصة ، إن المرء حين يقرأ قصة أو يشهد قطعة تمثيلية يترك كل تحفظ واحتياط ضد أراء المؤلف وعواطفه التى أودعها أثره الفنى ، فلا يحاول أن يقف منهـــا موقف المفكر المستقل الممتز باستقلاله الفكرى والعاطفى الضنين به أن يصيبه نقص أو حيف ذلك موقف الناقـد الأدبى لا موقف القارئ العادى الذى يسلم نفسه للقصة إسلاما لا تحفظ فيـه ، ويدع عقله وعاطفته عرضة لتأثير المؤلف ، بل تحت تأثيره الكامل

فى مثل هذه الحالة النفسية يصبح المرء ، عقائده وعواطفه ، تحت سلطان المـؤلف يتصرف فيها كيف شاء ، فلا يكاد يقرأ الصفحات الأولى حتى يظهر أثر ذلك فيـــه ، إذ يفكر تفكير المؤلف ويشعر شعوره ويقـــدر الأشياء تقديره ، فتنساب فى نفسه عواطفه ومبادئه وتستولى على نفسه ولو إلى أجل قصير ، استيلاءً يكاد يكون تاما ، فاذا ما عاد بعـــد ذلك إلى حالته الأولى عـاد فى كثير من الأحـــوال إما يشك فيما كان يعده موضع اليقـين ، أو ينقص فى احـترام بعض الفضائل والآداب التى كان يحـوطها بسياج من التقديس ، ذلك أن المؤلف فـاجأه على غرة وأخذه غير محترس فأوحى إلى نفسه عقـائده وآراءه ،

وأشعر قلبه عواطفه ومشاعره .

هذا الايحاء الذى يمتاز به الفن الكتابى مصدر كبير من مصادر التغيير الاجتماعى ، أقول إيحاء لأضعه فى موضعه الصحيح لأن من البين أنه فى غالب الأمر ليس من الاقناع العلمى فى قليل أو كثير ، هذا الايحاء إذاً عامل لا يستهان به فى تغيير العقائد والآداب ، وهو ولا ريب يلقى على كاهل الكتاب الأدبيين مسئولية اجتماعية كبيرة .

هل هو من الشئون التى تدخل تحت سلطان الدولة ، وهل يجب أن ينظمه القانون فلا يسمح منه بغير الصالح أم يجب أن يكون الانتاج الأدبى حرا طليقا . . لا أريد أن أثير هذا الموضوع الخطير الذى أثاره أفلاطون من قبل وانتهى فيه إلى أن الانتاج الأدبى يجب أن يخضع للقانون الأخلاق كغيره من التصرفات الفردية .

الذى يعنينا هنا هو أن الفن القصصى فى مصر حر ، وإن شئت فقل طليق من القيود ، أو كالطليق منها . وإن النتيجة الواقعة لذلك هى تسليط الأقلام المختلفة فى منازعها ومناحيها على عقول الجمهور والناشئين تفعل فيها كيف تشاء .

لم يبق لنا إذاً من أمل إلا أن نرجو أن يقوم من بيننا من كتاب القصة من يتصفون بصحة المبادئ وسلامة التفكير فيوجهون الجمهور توجيها نافعا . ولقد كان سروري عظيما يوم قرأت قصة « يليان فى الأندلس » للأستاذ عبد المنعم الحلوانى

فى القصة لهو كثير ، أعرف اللهو باستيلائه على النفس استيلاءً يصرفها عن كل ما سواه وباللذة المتدفقة من مصدره فى غير قلة أو انقطاع . وما من شك فى أن مصدر ذلك مواهب المؤلف وسلامة ذوقه وحسن اختياره لموضوع قصته .

تثير ذكرى الأندلس أو الفردوس الاسلامى المفقود أعمق العواطف فى نفوس قراء العربية ، فلا يزال حديث تلك الأمة العربية التى عاشت فى تلك الربوع ، وشادت فيها المدن ، وشقت الانهار ، وغنى شعراؤها وأدباؤها محاسن تلك الآفاق ، تلوع قلوب المتأدبين وتستدر الدمع من عيون جمهرة القارئين . ولن تزال الأحاديث عنها تستهوى النفوس وتسحر الألباب . ولن يفوتنى هنا أن ألمع إلى شعور قوى استولى على نفسى عقب قراءة الشعر الأندلسى ، والالمام ببعض أخبار أدباء الأندلس ، يظن الكثير منا ويطمئن إلى ظنه هذا أن عرب

الأندلس يشبهون فى تفكيرهم وأخلاقهم وعوائدهم عرب الشرق ، ولعل هذا الظن مسئول إلى حـــد بعيد عن انصراف مؤلفينا وأدبائنا عن دراسة أدب الأندلس وتاريخه ، وها هى ذى كتب تاريخ أدب اللغـة التى يتداولها الناشئة تزيد هذا الظن قـــوة بما تحدث به قراءها من أن العادات والنظم والآداب التى كانت تظهر فى بغـــداد لا تلبث أن تعـبر البحر إلى بلاد الأندلس لتستقر فيها وتذيع بين سكانها ، وأن بغداد كانت تمـــلى على الأندلس أدبها وذوقها وعاداتها ونظمها .

قد يكون بعض هذا صحيحا ولكن لا يلبث المرء أن يتعمق فى دراسة تاريخ الأندلس ، حتى يشعر بفرق عميق بين الشعبين يسوغ له أن يتحدث عن العقلية الأندلسية كعقلية منفصلة قائمة برأسها ، وهى إلى ذلك عقلية فتانة بمـــا فيها من عناصر النبل والرفعة ، هـذه العقلية مجهولة جهلا يـكاد يكون تاما سببه أن الجمهور العربى قد ركن إلى أن عرب قرطبه وبغداد يمثل كل منهما الآخر تمثيلا تاما .

وليس توفيق المؤلف فى اختيار موضوعه إلا أصغر ميزات قصته ، يبقى بعد ذلك قدرته الفنية ومهارته فى معالجـة موضوع

القصة المختار . لا شك أن سرد الحوادث بطريقة تستميل القارئ وتدفعه إلى المضى فى قراءة القصة ، ووصف الأماكن والبقاع وصفا يقيم منها بناء كامل الصياغة تام التكوين يسرح الخيال فى جنباته ويردد النظر فى معالمه لا شك أن ذلك فن دقيق ، لا تنال المهارة فيه بغير الصبر والأناة وطويل الدربة والمران . ولكن القصة القوية لا تتجه إلى الخيال وحده والمؤلف البارع لا يرى فى ذلك مقنعا .

لكل كاتب رسالة فنية عليا هى الغرض الأسمى الذى يحفزه للتأليف ، وليست الأماكن والبقاع والشخصيات التى تروح وتجئ إلا وسيلة لعرض ذلك الغرض السامى . ومن أهم تلك الأغراض الفنية تحليل العواطف الانسانية والنوازع النفسية للشخصيات المختلفة فى المواطن المتباينة حتى لا يكاد المرء يستتم قراءة القصة إلا وقد تلقى درسا عن الطبيعة البشرية ووقف من خفاياها على ما لم يتح له من قبل أن يقف عليه .

ولقد تجلت مواهب المؤلف فى أروع صورها فى تحليله الدقيق لعواطف الشخصيات التى أنشأها ، تلك موهبة أشك فى أن أكبر الفضل فى حيازتها يعود إلى المران أو التدريب ،

هى هبة ينالها القليل من الناس . فلقد رأيت كثيرا ممن درسوا علـــم النفس وأغرقـوا فى دراسة أصـوله يعجزون عن معرفة خواطر خلطائهم ومن يتصل بهم ولم تغن عنهم دراستهم فى ذلك شيئا . وإلى جانب أولئك طائفة قليلة من الناس تستطيع أن تنفذ ببصيرتها فى غير مشقة أو عناء إلى أخفى خطرات النفوس وخوالج القلوب فتصفها وصفا صادقا ، وتحللها تحليلا دقيقـــا . ولقد كان حظ قصتنا من ذلك وفـيرا حتى لتكاد بدقتها وقـوة تحليلها تعلو ميدان الفن لتلحق بالأفق العلمى ؟

ابراهيم اللبان
استاذ فى الآداب من جامعة لندن

ووصل وقائعها وصلا محكما ، مع الكشف عن الحالة الاجتماعية والنظم السياسية والدينية التى سادت البلاد فى ذلك العهد ، وما ساور النفوس من قلق وتحفز للثورة تتجه فوضى نظام الاقطاع ، وما تبع ذلك من فتن وحروب داخلية مهدت للعرب دخول البلاد ، وتخليصها مما كانت ترسف فيه من قيود الذل والاستعباد ، قد ترجح عندى بعد هذه الآيات البينات أن الرواية معربة لا وليدة أفكار واضعها ، غير أننى بعد أن استوثقت من صاحبي أنها من وضعه لم أتردد فى أنه سيكون من أشهر الروائيين ، وأنه سيضرب فى القصص بسهم وافر ، كيف لا وهذه أولى ثماره فى هذه الناحية وباكورة قصصه تضارع أشهر القصص للكتاب الروائيين من غربيين وناطقين بالضاد ، أما الأسلوب وأما اللغة فهما السحر الحلال والسهل الممتنع ، ولذا فقد جاءت القصة آية فى الروعة وغاية فى الكمال ، خاصة وقد أشربت روح المؤلف من عقيدة صحيحة وإيمان كامل .

ولا يسعنى بعد ذلك غير تقديم خالص التهنئة لهذا التوفيق العظيم .

وأرجو فى الختام قبول فائق احترامى ؟

المخلص

محمد زكى المسلمى

٥ مايو سنة ١٩٣٩

مقدمة المؤلف

الحمد لله العلى العظيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه . أما بعد

فهذا بيان سبب إقدامى على كتابة هذه القصة ، وما عانيت من أمرها ، ذلك أنه كان لى صاحب مغرم بالقصص ، وقراءة القصص ، لا يسمع بقصة إلا قرأها ويضيع فى ذلك معظم وقت فراغه ، فسألته لم تضيع وقتك هذا كله فى قراءة القصص ؟ قال للتسلية وقطع الوقت ، قلت له ياصاحبي اقرأ كتابا علمياً فذلك أكثر فائدة ، قال وهل أجد فى ذلك تسلية ؟ ، لقد تمل نفسى سريعا إذا ما قرأت كتابا علميا ، لأنى أحس عند قراءته أنى لازلت فى عملى ، ولم أترك واجباتى ، وأنا أحب أن أروح عن نفسى ، فمثلى مكدود من عمله طوال يومه ، وكثيرا ما تعترينى أفكار تقلقنى ، إما من ناحية العمل ، وإما من ناحية حياتى الخاصة ، فلا يحول بينى وبين هذه الأفكار إلا قراءة قصة من القصص أتسلى بها وأستريح ، ثم أعطانى قصة ، ورجا منى أن أقرأها وألح فى الرجاء وأكد لى أنى إن قرأتها ، فسوف أتابع قراءة القصص ، وأنى سوف لا أسلوها وكان كالمتيم الولهان ، الذى يحب من الناس أن يروا حبيبته بعينيه ، فيطيب قلبه بمدحها والتغنى بجمالها ، ويغبط نفسه

على حسن اختيـاره ، ولـكنه لم يقنعني بهذا ، فلا أزال زاهدا فى قراءة القصص ، وتركت القصـة أياما على مكتبى ، ولـكن حب الاستطلاع الغريزى فى النفس البشرية دفعنى بالرغم منى لأن أقرأ قصته فقرأتها ، فلم أجد فيهـا ما يرضى ضميرى ، مع أنى تابعت قراءتها دفعة واحـدة ، وإن كنت قد أحسست فى أثناء قراءتها تسلية ومتعة برغم تجنبى طول عمرى قراءة هـذا النوع من الـكتب ، وشعرت أنى أيقظت فى النفس داء دفينا هو المتعة من سماع حديث الشهوات ، وأدركت أن رحلة فى بيـداء الخيال ، بما تهىء للمرء قراءة قصة مغرية ، أفعل فى باب اللذة من الايغال فى حقـائق الاشياء والتعرف إليهـا ، وإن كنت أومن أنه يجب على الرجل العـالى الخلق ألا يرخى لنفسه العنان فى ذلك ، فانه إن أمعن فى هذا البـاب طغى على كل حديث آخر . . وأخيراً قلت لنفسى لقد انتصر عليك صاحبك ، وأصبحت تحب قراءة القصص ، فبـدأت أبحث سر هذا الداء ومبلغه من طبائع النفس البشرية ، فوجدت أن الشهوة أو بالأصح اللذة التى تدعـــو النفس إلى العمـل تتركـب من عنصرين ، عنصر فكرى يفتح الحـواس ويهيء العواطف ، وعنصر مادى جـامد يحركه العنصر الأول ، ومن الناس من يكتفى بالأول ولا يحتـاج إلى الثانى ، ويفقد الناس حياتهم العاطفيـة بفقدان الأول ، ولا يفقدونها بفقدان الثانى ، وقراءة القصص تبعث هـذا الداء ، وتولد الفكرة والاحساس باللذائذ ، إذ يحصل القارىء على إحـدى عنصرى

اللذة ، بل يحصل على العنصر الأهم وهو اللذة الفكرية ، من ذلك اقتنعت بأن قراءة القصص تقوى غرائز الشهوات وأن النفس تتأثر فى أثناء قراءتها بأفكار كاتبها وإحساساته وتخيلاته ، ولهذا السبب لا يقوى على مغالبة داء قراءة القصص إلا النادر القليل من هؤلاء الأفذاذ الذين يقدرون على كبح جماح شهواتهم . . .

وما من شك فى أن قراءة القصص ورؤيتها فى أثناء التمثيل أصبح أهم تسلية وأحسن متعة للناس فى العصر الحاضر ، فمحاولة منعهم عن قراءة القصص أو منعهم عن مشاهدتها فى دور الخيالة ، وتوجيه رغبتهم لقراءة الكتب العلمية الخالصة ، كسبيل للتسلية فى أوقات فراغهم ، ليس من الأمر الهين بل يكاد يكون فى حكم المستحيل .

ورأيت الأجانب قد عرفوا هذه الطبيعة فى نفس الانسان فاستغلوها استغلالا مفيداً حيناً واستغلالا ضاراً حيناً آخر ، واستفادوا منها على كلتا الحالتين إما بما جلبوا لأنفسهم ، وإما بما صبوا على أعدائهم فأصبحت كتابة القصص سبيلهم إلى بث دعاياتهم وأفكارهم ، يتلقفها الناس من حيث لا يشعرون ، ولا تلبث أن تظهر آثار هذه الأفكار عليهم ، وتبرز فى صورها العملية بغير جهد ولا عناء مع أنهم لو حاولوا بثها أو إقناع الناس بها ظاهرة غير مستترة تحت ستار هذا الأسلوب القصصى البراق ، لردها عليهم كثير من الناس أو على الأقل الذين يخالفونهم فى الرأى والعقيدة . . .

ولما كانت هذه النزعة وهذا الميل لقراءة القصص فى نفوس الناس من الأمور التى لا يمكن محاربتهم فيها والوقوف بهم دونها ، رأيت هذه المسألة من أهم المسائل الاجتماعية التى تجب العناية بها والالتفات إليها .

وما دامت قراءة القصص محببة إلى نفوس الناس إلى هذا الحد وجب علاج النفس ببث الأفكار السامية والمبادئ التى تصلح للأمة عن هذا الطريق بالرغم منا .

وبحثت عن القصص الذى يمتزج بالأفكار والمبادئ التى تصلح لأمتنا وشعبنا المصرى ، فلم أجد إلا القليل ووجدت معظم القصص الذى يقرأه الناس كل يوم قصصا فارغا خاليا إلا من الحب وتمثيل صور العوامل النفسية التى تتفاعل فى نفوس المحبين ، وأغلبها ممزوج بمذاهب الاشتراكية أو الرأسمالية أو غيرها أو ممزوج بالدعوة السياسية لأمة من الأمم ، حتى لقد يخرج القارئ من قراءة القصة ، وقد امتزجت نفسه بهذه الدعوة وبحب عظمة هذه الأمة وتمجيدها ويسرح خياله فى عظمتها ومدنيتها ولو لم تكن كذلك فيصبح تابعا لهذه الأمة بروحه وعقله لشدة إعجابه بما فيها من مدنية وماحوته من علم وحضارة وهكذا يغزو الكتاب الأمم ويستعبدونها من حيث لا تشعر .

وهكذا كما قدمت أصبحت القصص تسلية الناس يحتاجها الكثير منهم كما يحتاجون الطعام والشراب والاستراضة ويحتاجون لذلك منها

محصولا وافراً ، فأصبح القارئ يحتاج كل أسبوع قصة جديدة أكثر مما يحتاج رياضة منعشة ، وكل ما فى الأسواق من قصص مترجم عن الفرنجة يغزوننا به وفيه الكثير من الغث وقليل من السمين ومحصولنا المصرى قليل جدا . والسبب فى قلته خوف عدم الاجادة وسبيل الاجادة المثابرة وإننا على هذا الحال نحتاج كل يوم قصة حتى يكون الانتاج وافراً . نبيعه للغير ولا نشترى منه .

فأحببت أن أجاهد فى هذا السبيل وأدلى بدلوى فى الدلاء وكنت أقدر ما أقدمت عليه وأحسب الجهد الذى يستلزمه ذلك ولكن لم أكن أحسبه ممتنعا إذ كنت أقرأ كتابة غيرى وأنقدها نقداً لاذعاً وكنت أزعم أنى لو أمسكت القلم لسال على القرطاس بياناً وسحراً وأنى أحسن كتابة القصص مع بلاغة التعبير وفصاحة الكلم .

فلما عالجت هذا النوع فى كتابة قصتى هذه أدركت سهولة النقد على الناقد ، وأكبرت جهد الكاتب وعلمت أنى كنت فى غرور . فلم أكن فى ذلك إلا كأحد النظارة فى ملعب الكرة تتحرك مع اللاعب عواطفه ولكنها تجرى أسرع منه فيستخف بلعبه ويظن لو أنه كان مكانه لقذف بالكرة فأصاب المرمى . وقد يكون هذا الرائى المتعجل أعجز الناس عن أن يحرك قدميه ولا يدرى ما يتعرض له اللاعب من ذهول وارتباك ولا ما يعانيه من مشقة وجهد . وكما يقول الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وأدركت أن الكاتب يعانى أشق مما يعانى هذا اللاعب أو غيره من أرباب المهن والفنون فارتفع تقديرى لفن الكتابة وعاهدت نفسى ألا أغمط كاتبا حقه . إلا أنى لازلت مصراً على الانتقاد لأنه مناط التمييز وسبيل التعلم بيد أن انتقادى صار رحيما بعيدا عن الغلو ممتازا عن الأول بطابع جديد يرفع شأن الكاتبين ويعرف مقدار صبرهم وما يعانونه من جهد مضن .

وعالجت قصتى الجديدة مستوحيا بيانا حسبته يفيض فاذا به يغيض ووجدت كتابتى قلقة حيناً ومضطربة أحياناً وكدت أعدل عن هذا النوع من الكتابة ولكن قلت وما عليك وأنت تعالج شيئاً جديداً أن تسلك سبيله وئيداً . ولست من المشهورين بكتابة الأدب الرفيع فتنزل عن مكانك فليكن ما تكتبه أدبا وسطا أو أقل من الوسط بقليل ثم ما علىّ إن أنا عنيت بالفكرة والمعنى دون اللفظ واجتهدت فى تصوير الاحساسات والعواطف التى تجرى فى حوادث الرواية فصورتها للقارئ تمام التصوير فان لم أبلغ من اللفظ تألقه فحسبى من المعنى تحققه فاستعصى ذلك على أيضا فى شيئين . الأول أنى لم أتمكن من تصوير المعانى جلية واضحة بدون إحسان اللفظ الذى كنت أحسبه هيناً ليناً يطاوعنى فى أى معنى أردت . فجاهدت وجاهدت ولا أرانى حصلت على نتيجة تذكر . ولو أنى أحسبنى لا أعدم ذا خلق عال من أهل الأدب يشجعنى فيبعث فىّ حافز المثابرة على الكتابة لا أكثر ولا أقل

أما ثالثة الاثافى فثالثة الاثنتين وهى أدهى وأمر وأشد وأعقد ، إذ كيف أصور إحساسا لا يتفق مع إحساسى ، وأصف شعورا لا يتفق مع شعورى ، والقصة تجمع المتناقضين وكيف أجمع ذهنى لتصوير شعور الفضيلة وشعور الرذيلة فى وقت واحـــــد لأفرق بينهما ، حتى أصل بالقارئ إلى ما أريد من عظة وعبرة ، وكيف أتكلم عن قوم لهم معتقدات تحز فى نفسى وأبرأ إلى الله من ذكرها ، وثقل على هـذا من كل ناحية ، فتجاوزت كثيرا ، حتى لا أدخل فى دور المعتقدات ولا أجادل أحدا ، غير أن اعتقادى كان يلازمنى ، ملازمة روحى لجسدى ، وما ظهر منه يمت إلى السبب الذى كتبت القصة من أجله ، ولكنى اجتهدت وأصبت فى أنى لم أتعرض لدين من الأديان أو سياسة من السياسات قصدتها بالذات ، فجاءت القصة بعيدة عن هذا كله ...

ولم أخلص من كل هذه المتاعب ، حتى ألقيت على نفسى عبئا آخر أثقل كثيراً مما مضى ، فانى اخترت تلك الحلقة المفقودة من تاريخ الأندلس وهى الحلقة التى سبقت فتح العرب للأندلس إلى أن فتحه الغازى الخالد الذكر طارق بن زياد ، وجعلت أدوار القصة تطوف حول حوادث هـذه الأيام فوجدت روايات متعـددة عن حوادث فيها اختلاف كثير ، وتحريت فلم أصل الى تحقيق المؤرخ ذلك التحقيق العلمى الذى يحرص عليه علماء التاريخ ويصلون من تعرض له من غير أهله نارا حامية ، فقلت وما على من هؤلاء ولو أطبقوا السموات على

الأرض ، فكثير من حوادث التاريخ التي شاعت وتناقلتها الألسن وأصبحت في سجلاتهم صدقا يرتفع عن الشك ، ولا يصل الى اليقين ، لو بحثت تمام البحث ، لغاصت في بحار الريب والشكوك ، ولا أقول إلا كما قال موسى لفرعون عندما سأله (فما بال القرون الأولى) قال (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) أما الناس فمعرضون للخطأ والنسيان والتضليل ولكن ذلك لم ينسني واجبي نحو التاريخ ، فقد استخلصت من الروايات ما أزعم ولا أومن أنه يطابق الواقع ، ولكنه على الأقل يطابق حالة العصر الذي وقعت فيه حوادث القصة ، واجتهدت في أن أسوق القصة تمثل الحوادث والفتن السائدة في هذا العصر فتستخلص العبر التي قصدناها ، وأردت ان أربط بين هذه القصة وبين الحوادث رباط متين ، فأعيتني الحيلة في هذه الاخبار المتناقضة والروايات الغريبة إذ أجد الحوادث تنقل من جملة مصادر ، لكل مصدر غاية خاصة حسب التشيع وهذا التشيع ليس قاصرا على أهل العصر الناقلين لهذه الحوادث ، بل يتعداهم إلى من بعدهم ، تبعا لاختلاف المذاهب والشعور ، والزيادة أو النقص في النقل أو في التخريج ، والآن ونحن في عصر النور والعلم لا نجد من يعنون بتدوين الحوادث في وقتها ، بل تترك بلا تدوين حتى يتولاها الخلف ، هذا إذا استثنينا الحوادث البارزة التي تدونها الصحف اليومية ... وبعض الحوادث يتناقلها الناس وتشيع وتجد فيها اختلافا كثيرا ، وأظن ان

ذلك يرجع فى بعض الأحيان إلى ان موضوعا من مواضيع الحوادث يشتمل على شطرين وعلى تأويلين ، ففريق ينقل الخبر الأول ويؤوله تأويلا يخالف ما تبعه وترتب عليه ، وفريق آخر ينقل الخبر الثانى ويترك الأول ويؤوله تأويلا لا يتفق مع أساس الخبر الأول الذى تعلق به ، ولو ان الناقل استطاع صقل الحوادث وربطها لخرج بنتيجة مفيدة ، ولتزحزح قليلا أو كثيرا عن التناقض ، وأحسبنى أنى قد أتيح لى ربط تلك الأخبار بما أخرج صورة صادقة من أحاديث أهل هذا العصر ، تدور بين الأشخاص ذوى الشأن الأكبر فيه ، وليس عدوانا منى أننى سميت بعضهم بغير اسمائهم ، فربما كان ذلك من اغراض القصاص إذ لا يلتزم القصصى ما يجب على المؤرخ وقد يكون فى بعض تخريجى ما يلاحظ عليه الكلفة أو مالا يستطاع تصور حدوثه إلا فى النادر القليل ، ولكنه ليس مستحيلا عقلا ، ولا نقول إنه ليس فى حوادث الرواية دخيل لم يحصل فان إدعاء هذا يخرجها من حظيرة القصص ، ولكننا لا نرى من عيب فى ان نقول إن معظمها حصل إن لم يكن كلها ، وإذا دقق القارئ وجد من سلسلة حوادث القصة ، ما يجمع أخبار هذا العصر وتطوراته ، والفتن والدسائس ، والحقد والفرقة التى كانت سائدة حتى غزا الأندلس العرب الفاتحون ، وفى سرد هذه الحوادث ، كانت غايتنا الوحيدة استخراج العبرة ، ولم نتعمق فى بحث العواطف الانسانية ، والعوامل النفسية تعمق كتاب الأدب إلا فى

بعض النواحى وتركنا الباقى لتكييف القارئ وحكمه .

هذا ما عانيت وهذا ما قصدت ، ذكرت ما عانيت حتى أخرج من عداد المدعين ولو أنى لم أجـــد دفاعا أخرج به من عداد المتطفلين على مائدة المحترفين .

هذا ما قصدت وعملت جهد العانى المقل ولعل نبل مقصدى يشفع لى فيما عسى أن أكون قد وقعت فيه من خطأ ، أشكر من يرشدنى الى مواضعه ، ولو كنت قادراً على تجنبه ما أتيتــه ، إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كلمــة

قصيرة عن نظام الحكم فى بلاد الاندلس قبل الفتح الاسلامى وفى عصر حوادث هذه القصة

كان الحكم فى هذا العصر لأصحاب الاقطاع ، وكانت البلاد مقسمة الى اقطاعيات كثيرة ، يحكم الجميع ملك واحد .

وكان لصاحب الاقطاعيـة الحق المطلق فى التصرف فيها واستثمار خيراتها ، دون العاملين فيها ، يكتسب هذا الحق اما بالميراث واما بالفتح والغزو والقـــوة ، وكان الملك يقر ذلك كله مادام صاحب الاقطاعية ، مؤديا لحق الملك من جباية أموالهـا ، مواليا له عامـلا على انفاذ كلمتـه ، مناصراً له على اعدائه .

وكان الشعب يعيش من فضلات أصحاب الاقطاع ويسودهم عليه سيادة الرب على العبد .

وصف بلاد الأندلس

تقع هذه البلاد فى جنوب أوربا الغربى ، وتحتوى شبه جزيرة ايبريا ، تحدها شمالا جبال البرانس الحدود الطبيعية بينها وبين بلاد فرنسا وهذه البلاد من خير أقاليم الارض ، وأجودها تربة ، اذا اخضرت وربت ، أنبتت حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، جنات ملئت حدائق غلبا وفاكهة وأبا ، ترابها تبر ورياضها در ، وهواؤها عليل بليل ، وريحها معطر بالرياحين والعنبر ، وماؤها عذب فرات سلسبيل ، يقول أبو عبيد البكرى فى وصفها ، الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظيم جبايتها صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها ، واليك بعض ما قال الشعراء فى وصفها ، والتغنى بجمالها .

ليااليك أسحار وأرضك روضة   وتربك فى استنشاقها عنبر ورد

وقال آخر

ان للجنة بالأندلس   مجتلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب   ودجى ليلتها من لعس

واذا ما هبت الريح صبا   صحت واشواق الى الأندلس

وآخر يقول

لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدر بين زبرجد مكنون

ولله در بن اسفر المرينى حين يقول

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وأين يعدل عن أرض تحض بها على المدامة أمواه وافياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحراً ولا انتثار لآلى الطل أنداء
وانما أرج الند استثار بها فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
واين يبلغ منها ما اصنفه وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الأرض حين بدت فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت وجداً بها اذ تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهى الرياض وكل الارض صحراء

ويقول آخر

حبذا أندلس من بلد لم تزل تنتج لى كل سرور
طائر شاد وظل وارف ومياه سايحات وقصور

وهذا عاشق آخر للأندلس

يا حسن أندلس وما جمعتْ لنا ... فيها من الأوطار والأوطان

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها ... بتعاقب الأحيان والأزمان

نسج الربيع نباتها من سندس ... مَوْشِيّة ببدائع الالوان

وغـدا النسيم بها عليلا هائما ... بربوعها وتلاطم البحران

يا حسنها والطل ينثر فوقهـا ... دررا خلال الورد والريحان

وسواعد الأنهار قد مدت الى ... ندمائهـا بشقائق النعمان

وتجاوبت فيها شوادى طيرها ... والتفت الأغصان بالأغصان

ما زرتها إلا وحيّانى بهـا ... حدق البهار وأعين السوسان

من بعدها ما أعجبتنى بلدة ... مع ما حللت به من البلدان

فهى بلاد الطبيعة والجمال والسحر الحلال ، إذ جادت تربتها ، وامتدت أفياؤها ، وانتشرت ظلالها ، وطاب مناخها ، وفاضت خيراتها وحسنت مناظرها ، وإذا كان الانسان ابن بيئته وصنيعتها ، تفرغه فى قالبها وتطبعه بطابعها ، فان كائنا من كان يسعه بسهولة تصور الأندلسى وقد نشأ فى الحلية ، ودرج فى الزينة ، ولم تقع عينه إلا على جمـال الطبيعة الفاتن ، صنع الله الذى أتقن كل شئ .

من أجل ذلك عشقها روادها ، واغرتهم بها مباهجها فتفننوا بمحاسنها ، ولن يصلوا الى وصفها ، أو وصف جمالها وجنانها ونعيمها .

وبين افياء هذه البلاد الجميلة تقع حوادث روايتنا هـذه ، حوالى

القرن السابع الميلادى وتبتدئ فى طليطلة .

طليطـــــلة

وفى هذا الوقت كانت طليطلة حاضرة هذه البلاد ، ذات التاريخ القديم والمدنية العظيمة ، والسعة والسلطان ، يمر في وسطها نهر باجه بنيت على شاطئه الدور والقصور ، تحفها الحدائق والأشجار الباسقة وفيها يقول الشاعر :

زادت طليطلة على ما حدثوا بلد عليه نضرةٌ ونعيم
الله زينه فوشح خصره نهر المجرة والغصون نجوم

وفى طليطلة بنيت أقدم كنيسه في العالم المسيحى من عهد خوشندس الأول أول معتنقى المسيحية من ملوك أوروبا ، اعتنقها حين نزل الحواريون تلاميذ عيسى عليه السلام الأندلس ، فأكرم وفادتهم ، واعتنق ملتهم ، وناصرهم حتى اعتنقها أكثر الاسبان ، ومنهم انتقلت الى أوروبا ، وهذه الكنيسة تشمل ثلاث بنايات كبيرة ، أولها المعبد ، وثانيها دار القسس والرهبان ، وثالثها دار التحف القديمة الأثرية ، وبها مائدة سليمان عليه السلام ، قوائمها من الذهب الابريز ، وقد رصعت بالياقوت والماس ، نقلها الى اسبانيا الملك اشبان ، الذى نسبت اليه اسبانيا ، وخطط فيها مدينة اشبيلية وروى المؤرخون له حكاية طريفة

فقد كان هذا الملك مزارعا فقيرا ، وبينما هو يحرث الأرض

بمحرائه مر عليه الخضر عليه السلام ، فقال له يا اشبان ، إنك لذو شأن وسوف يحظيك زمان ويمليك سلطان ، فاذا أنت غلبت على إيليا ، فارفق بذرية الأنبياء من ساكنيها ، فسخر اشبان من هذا التنبؤ العجيب ، ومر بالكلام مر الكرام ، وظن أنه يسخر منه ، فقال له ، أوتعجب من أمر الله ، قد قدر ذلك فيك من قدر فى عصاك اليابسة ما تراه فنظر اشبان الى عصاه فاذا بها قد أورقت !! فريع منها ، ولم يجد للخضر أثرا ، فترك محرائه من ساعته وجاشت فى نفسه دوافع الأمل ، والاعتقاد بأنه سيكون ملك البلاد ، فعلت همته ، واشتدت رغبته فذهب الى الحضر ، وخالط أهلها ، حتى أحبوه واتبعوه ، الى أن نبه شأنه وكثر حزبه ، ونهض للملك فتبوأه ، ولم يقنع ببلاده ، بل غزا غيرها ، واستمر فى فتوحاته الى ان عبر افريقيا وآسيا ، واتصل بالشام ، وفتح ايليا ، ونقل منها الى اسبانيا تحفها وجواهرها ، ومن بين ذلك مائدة سليمان ، التى يعجز الوصف عن بيان نفاستها وهى التى ذكر المؤرخون ، ان طارقا بعد الفتح ودخول طليطلة عثر عليها فأرسلها الى موسى بن نصير ، ثم أرسلها هو الى الخليفة الوليد بأرض الشام ...

ونعود الى حديثنا عن طليطلة ، فنجد الى جوار الكنيسة قصر الملك ، وهو قصر لا يحده البصر طولا ولا عرضا ، تحيط به الرياض والرياحين وتكتنفه الازهار والبساتين وتتخلله الجداول المنسابة فى حدائقه ، ونوافير المياه المتدفقة كالسيوف المصلتة ، وتتناثر فيها اقفاص الطيور

المفردة ، ذات الألوان الفريدة البديعة ، يوحى الله سبحانه وتعالى ، للناظر اليها أن يتذوق أسباب الجمال ، وكيفية التزين وضياء التمدن ،

وينقسم هذا القصر الى جملة أقسام ، جناح الوزارة وبلاط الملك فى ناحية وحده ، وجناح الملك فى حرم وحده ، وجناح ولى العهد وجناح الابناء ، وجناح خاص بربيبات الملك وبنات الاشراف .

ربيبات الملك وبنات الاشراف

وفى جناح ربيبات الملك وبنات الاشراف ، يتربى بنات أصحاب الاقطاعيات واشراف الأندلس ، اذ جرت عاداتهم ، أن يرسلوا بناتهم عند بلوغهن العاشرة من عمرهن الى الملك ليشرف على تربيتهن يختلطن فى دار الملك بأبنائه ، ويتعرفن فى حفلات القصر والأعياد القومية التى يحييها الملك ، الى كبار رجال المملكة واشرافهم ، فيخطبهن الى الملك ، أصحابُ الاقطاع والنبلاءُ وكبارُ القواد ، مفاخرين بهذه التربية وبهذه الخطبة ، فان من يظفر بها ينال الحظوة والقربى من الملك ومن يليه ،

ولذلك اجتمع منهن فى عهد الملك الخامس والعشرين من أسرة خوشندس ، ما يقرب من المائة من بنات عظماء الجزيرة واشرافهم ونبلائهم ، غير الجوارى والحشم ،

وإذا حانت ساعة الغروب وجدتهن يسترضن ، على شاطئ نهر

ناجو (باجه) ، وفيهن أجمل بنات الأندلس بل أجمل بنات العالم ، يختلفن الى المقاصير والنوافير زرافات ووحداناً ،

وإنك إذا دخلت هذا القصر ، ورأيت اولاداً ظننت أنهن الحور العين ، هبطن الى الدنيا من جنات النعيم ، وهن تحت ظلال الأشجار والرياحين ، أملاك الدنيا تتلألأ فى أصابعهن فصوص الياقوت والمرجان ، وعلى صدورهن فوق الترائب تتدلى تريبات من الجواهر الساطعة ، التى تبهر البصر ، يرفلن فى أثواب السندس والاستبرق ، يخلبن الألباب ، ويذهلن العقول . ولعل التاريخ لا يعرف فى قصر من القصور أو عصر من العصور . مثل هذا العدد من الكواكب الحسان ، ذوات الوجوه الوضيئة الملقحة بحمرة جو جبال البرانس . مع القد الممشوق ، والخفة واللطافة ،

وكانت تربيتهن . تربية العناصر الممتازة ، والبيئة الرفيعة ، لولا ما يصيب مثل أولاء وهؤلاء من نفحات الصبا والصبابة فى مثل هذا العدد الوفير وفى اغراء النعمة بين الرافلين فى حلل الامارة وابهاء الملك ، لذلك كن مكان الداء من الدولة ،

أبنـــاء الملك

وكان للملك ولدان ، غيطشه ، ولى عهده ، وكان ذا أخلاق عالية ونفس أبية ، وطلعة مشرقة ، إلا انه فطرى الطبع سليم الطوية أمنة

لا يضمر السوء لأحد ، ولا يسيء الظن بأحد ، ومع أنه يعيش فى القصر بين بنات النبلاء والاشراف ، اللائى يسحرن بجمالهن لب التقى الورع ، فانه لم يرن الى واحدة منهن ، كأنه يعيش فى عالم غير هذا العالم المملوء بالفتنة والاغراء ، مع أن طبيعة المخالط تغريه بملاحة أولاء الكواعب الأتراب ، وتجعله لا يقنع بواحدة ، لجمال الواحدة منهن جمال فريد فى بابه ، ترى تميس بين الاغصان كأنها من عالم الحور الحسان ، تسلب الرائى عقله ، فيطيب له أن يرتشف من رضابها ، وكلما أروى غليله أظمأه ما يرى ، فهو غير مارأى واستعذب واستحلى ، واستنجز واستوفى ، يظمأ بالرى والاستمتاع ، أكثر مما يظمأ بالبعد والعطش والانقطاع ، كان هذا حال غيطشة برغم ما يحيط به ، كأنه انبثق من نور روح القدس ، أو ملك كريم بين عيون اتباع الشيطان الرجيم ، فهو غافل عن هذه المظاهر والمغريات ،

وللأمير غيطشة أخ هو الأمير جوليان ، حاذق ذكى ذو مشاعر ملتهبة وعواطف وهاجة وخيال خصيب ، ومع أنه ميال إلى الطهر له وازع من الشرف والنبل ، فانه يميل كل الميل إلى الاستمتاع بهذا الجمال الفاتن ، الملموس فى بنات الاشراف ، اللائى يجاورنه . ويراهن فى كل حين . فى غدوه ورواحه . وفى أوقات فراغه وفى أثناء استراضته ، فهو يسايرهن كثيرا . ويبادلهن أحيانا هوى بهوى وعاطفة بعاطفة ، إلا أنه أخيرا يربأ بنفسه ان يراها مغمورة فى سموم الرذيلة ،

لقد تتنازعه كثيرا مشاعر النبل والفضيلة، وعواطف الاغراء والرذيلة، شأن من تعرض لما هو فيه، وهو فى الواقع يقوى على غايات نفسه فى أغلب المواقف، ولكنه متهم من والده بركونه الى الهوى وإخلاده الى الغانيات، وباهماله أعمال المملكة وشئونها، لذلك لايحله محل الرعاية منه، لا سيما أنه يريد ان يظهر فى محافل أصحاب الاقطاع وبين قواد الجيش، ويأتى من الأعمال مايجعله أمام الشعب أميرا بارزاً لشخصية معنياً بالصالح العام، مضطلعاً بكثير من المهام، حتى يكون عونا لأخيه إذا ما آل اليه الملك، خصوصا فى هذا الزمن الذى بدا فيه من كثير من حكام الاقطاعيات ونبلاء الجزيرة وبعض الوزراء مابدا من أطماع فى الملك، ونفرة وانقسام، وفتن مقبلة وأيام عز مدبرة،

ولكن جوليان لا يحب أخاه غيطشة، لأنه يراه أقرب الى البلاهة والدعة وحب الوحدة منه الى الفطنة وقوة الرأى والاتصال بالناس. ولأنه يرى نفسه أحق بولاية العهد منه، وكلما ازداد حب والده له وعطفه عليه ازداد جوليان كراهية له وبعداً منه، وهو دائما حاقد عليه، ينتظر له الأيام، ويتربص به الدوائر،

ولما كانت ولاية العهد تنتقل لجميع أولاد الملك الأكبر فالأكبر ثم لأولاد الأكبر كذلك، فجوليان يشتهى أن يموت أخوه أو يقتل حتى تئول اليه ولاية العهد، مع أن الطامعين فى الملك كثير، يتحينون الوقت لينزلوهم جميعا عن عرش القوط، كما استلت العروش منذ القدم،

حين غفل عنها أربابها وخدعهم بهرجها ، وغفلوا عن شئونها ، وما تقتضيه سياستها ، من حذر ورشد ، وعزم وقـوة ، واتحاد وألفة ، وهى عندئذ لا تذهب بالتاج فحسب ، بل تصرع الرجال ، وتهوى بالرءوس وتعصر الأنفس وتميد بالبلاد ، إذ تكثر الفتن وتشتد المحن ، ولا ينفع حينئذ حلم الحليم ، ولا رأى الرشيد الحكيم ، ولا صولة القائد الباسل ، ولا الجاه العريض الطائل ، ولا المال الكثير وصولة الفصائل ، إذ كيف ينفع كل هـذا مع جيش المطامع ، وكثرة الفـتن والزعازع ، وذهاب الهيبة ، وشيوع الفرقة فالويل كل الويل لمن احتمل امانة التـاج ثم غفل عن حراسته وظن أنه ينام على سرير نعيمه ، قرير العين بين أعين الطامعين ، وفتن الحاقـدين ونفوس الشعب الـتى تتغير من حين الى حين ، وهى راضية إن وجدت ، ساخطة إن حرمت ، فالتـاج مع ما يخالط صاحبه من النعيم الظاهر ، وأبهة المظاهر ، عبء لا يستهان به ، وعمل جاهد مضن لا يستخف به ، وخطـر ماثل لا يغيب ، ينكر فيه صـاحبه نفسه والبعيد والقريب ،

ولذلك وجبت اليقظة والمعرفة على الملك ، وعلى الأسرة والشعب أن يقـروا بقلوبهم والسنتهم للوارث ارثه ، كأنه حق تملكه من يد القدرة ، وتناوله من يد العزة فلا ينازعه فيه منازع .

ولأنه اذا تخاذلت الأسرة بالاطماع وانصرف الشعب الى الأهواء أسرع التـاج الى الزوال عن صاحب التاج وأسرته ، والويـل للشعب

الذى لا يفدى عرشه بالمهج والأنفس ، ويغار عليه غيرته على حياته ، لان التـــاج إذا تقلقل اضطرب الشعب وبات فى النيران واستعبد ، وهيهات ان يستقر بعد ذلك ، والتاج كالمعدن اذا صهر ذاب ، ولا يذيبه إلا إيقاد نار الاحقاد فاذا ذاب انصهر فـوق الرءوس ، وانصب عليها من حميم آن ، فأودى بالمهج والضلوع ، ولكن جوليان فى ثورة حقده ، وعوامل طمعه وجشعه لا يعبأ بـعبرة التاريخ ، ولا يثـوب الى رشده الا بعد زوال الملك وحرمانه من نسبه ولقبه .

الفصل الاول

جوليـان . لندل

الوقت أصيل ، والنسيم عليـل ، والطير يشدو ، والبـلابل تغنى ، والاغصان تهفو وتميل ، والمـاء ينساب فى الجداول كالفضة ، والرياحين حواليه باسمة ناضرة ، فى روضة من الجنـات يانعة وعلى مقربة من جناح ربيبات الملك ، فى حديقة القصر ، وفى مقصورة من المقاصير جلس جوليـان يتحدث الى لندل ، ربيبـة بيت الملك ، وشقيقة لنريق (نبيل من كبـار نبلاء الجـزيرة) وحبيبـة جوليانـ ، ومالـكة لبه وعقـله والمسيطرة على عواطفه وهواه ،

لندل : انى أحبك من أعماق نفسى ، لم أعـد أقوى على فراقك لحظة ، ألا ترق لحالى ، ألا ترانى قـد ذبلت من كثرة السهد والأرق ،

انى لا أنام فى الليل لحظة ، ولا أهجع منه فترة ، وكيف أذوق النوم وأنا أفكر فيك ان كنت تحبنى حقيقة كما أحبك فكيف تذوق طعم الكرى وأنا لا أذوقه ،

جوليان : تعلمين يالندل أن مريسيا كانت تحبنى حباً جماً ، ولكنى كنت أكرهها كرها شديداً ، ولا أطمئن اليها لأنى أرى فيها خبثاً وألمح فى عينيها الغدر والخيانة ، فلما عرض على والدى خطبتها رفضت فثارت الكنيسة ضدى . زعماً أنى لم أرفض يدها إلا لأنها أخت كاهن واعتبرتنى جاحداً . واشتد غضبها حتى على الأسرة كلها ، فالملك ارضاءً لهما . وحرصاً على مودتهما . وخوفاً من نفوذهما . خطب مريسيا لولى العهد فقبل ، ولكن حبها انقلب بغضاً لى ، تتمنى الانتقام منى . ولها يد على سامون . فهو يدبر لى المكائد . وقال لوالدى . ان من حق الملك أن يخطب لأبنائه ، فخطب لى نورا بنت غرديق ، وأنا لا أحبها كما أحبك ، فلما عرضت على والدى رغبتى فى خطبتك مانع أشد الممانعة ، ورفض اقترانى منك ، تبعاً لمشورات وزيره سامون ، وسامون يكره أخاك لدريق ، فهو يمانع فى ذلك ، ويحرص على عدم اتمامه حرصه على منصبه ،

لندل : إذن الملك يمانع فى زواجى منك (وتعض على يديها) .

جوليان : لاشك انه يمانع تحت تأثير وزيره سامون . ويفرض علىّ الزواج من نورا فرضا . وأنت بالطبع واثقة من انى لا أحمل لها فى

قلبي الحب الذى أحمله لك ، رغم ما تبديه من التودد إلىّ والتقرب منى ، طواعية لتعليماتهم وإرشاداتهم ، فهى تحاول التأثير فىّ بكل ما تملك من قوة ولكن ثقى يالندل إنى لا أحبها قطرة من حبي لك مهما حاولت ..

تبكى لندل إذ تقع على قلبها هذه الأخبار وقع الصواعق ،

لندل : انطفأت آمالى ، ياليتنى أقوى على هجرانك ، ياليتنى لم أخرج إلى هذا العالم ، ياليتنى أموت قبل أن أراك تزفين إلى غيرى ،

جوليان : لا تجزعى فان قلبي لك ومعك ولا يملكون تحويله عنك ،

لندل : ولكنك خاضع لأوامر الملك وتقاليد الكنيسة ، فلا يتم زواجنا إلا بموافقته وتكليلها .

جوليان : وهل تظنين يالندل أنى أبيع قلبي لطاعة الملك وتقاليد الكنيسة وأسير جسداً بلا قلب ، وميتاً فى صورة الأحياء ، وسجيناً رغم أنى من الطلقاء ، ثم يهم بتقبيلها . فتمانعه ،

لندل : أيها الأمير النبيل ، لقد قضينا فى هذا الحب سنين وحافظنا على الطهر والعفاف ، ولم أر منك أى يوم إلا شرفاً ونبلاً وعفة وكرامة ، فلا تخذلك عواطفك ، فعواطفى أشد اضطراماً وشوقى إلى حنانك أقوى ناراً وهياماً ولكنى أغالبه حباً فى طهارتى وطهارتك ، حتى يجمع الله شملنا فى زفاف الكنيسة المقدسة وتقاليدنا العالية ،

جوليان : إننى شريف يالندل ، إننى أعرف الواجب ، وأعتقد أن

شرف الضمير فوق شرف المظاهر الكاذبة والتقاليد المنيفة . وفوق الارغام على من لا أحب : ثم يخاف أن تغلبه عواطفه فيهم بالقيام والدمع يترقرق فى عينيه : ويقول : إلى اللقاء غداً : فتبكى لندل ،

لندل : أنا لك ياجوليان ، أنا المعذبة بحبك ، أنا البائسة الحزينة مهلا فالمرأة أضعف فى مغالبة عواطفها من الرجل ،

يقف جوليان معتزماً المسير ،

جوليان : إذن إلى الغد : فتجهش لندل بالبكاء ،

لندل : يالبعد الغد ،

بعد أن يسير جوليان يحاول الرجوع إليها حيث لا تطاوعه قدماه على المسير ، ولكنه يخشى تأجج العاطفة ، ويخاف أن يحز ضميره ضمير لندل الطاهر فيستيقظ ليؤنبه مرة ثانية ، فيتابع سيره فى خطىً متثاقلة على حافة النهر ، وقد غرقت أفكاره فى لجج مياهه ، فلا يتنبه إلا على سماع صوت رقيق يناديه فى دعة وخفة ،

نورا : عم مساءً أيها الأمير ،

جوليان : طاب مساؤك يا نورا ،

نورا : هل يسمح الأمير أن أستجلى محياه وأنشد مؤانسته قليلاً من الوقت ، لأن بى سآمة تعودت أن أداويها بحديثه العذب ،

يجلس جوليان فى مكان قريب من استراحات الحديقة ويقول

جوليان : لا أرفض جلوسك ولا أكره حديثك فتفضلى ،

نورا : إن هذا عطف منك يسعدنى ،

جوليان : وأنا سعيد به أيضاً ،

نورا : أحقاً ذلك وكنت أود أن أسمع منك أنك تحب حديثى كما لا تكرهه ،

جوليان : لا تؤاخذينى فانى مهموم يا نورا ،

نورا : إن همك يؤذينى ، وسرورك يسعدنى ، فهل لى ان أخففه ؟؟

جوليان : يا ليت فى إستطاعة انسان أن يخففه ،

نورا : إن الحبيب هو الذى يخفف هموم حبيبه وأنا أحبك يا جوليان فهل تحبنى ؟

جوليان : أنا لا أكرهك يا نورا ،

نورا : أريد أن أسمع منك أنك تحبنى كما أحبك ،

جوليان : هل تسمحين لى بالانصراف لأنى متوعك ...؟ الى الغد يا نورا ،

نورا : الى الغد ، بقلب ملؤه الأمل ، إلى الغد وأنت صحيح معافى

يسير جوليان كئيباً حزيناً . شارد الفكر ، فتلحقه لندل وقد ملأت الغيرة قلبها عندما لمحته يتحدث إلى نورا وجد الدم الذكى ، ودق القلب بغير انتظام ، وأفقدها الحب نور الرشد ،

لندل : قف . إنى غير قادرة على بعدك ، إن كنت أخطأت فاعف عنى وأنا وهبت لك نفسى بحبى ، فأنا رهينة مشيئتك ، وأنت النبيل

الشريف ، ما يرضيك يرضيني ، وما يسوءك يسوءني ، نحن روح واحدة ، ونسير إلى مصير واحد ،

جوليان : إنني لفخور بك يا لنـــدل أيتها الطاهرة الأبية ، إصبري إلى الغد ،

لندل : رأيتك تتحدث الى نورا ، فدخل في روعي أنك تمالج نفسك على حبها ، امتثالاً للأمر الواقع فطاش صوابي وكدت أجن ،

جوليان : هذه هي التقاليد التي نرسف في أغلالها يالندل ، وهي التي تذكرينني بالوفاء لها كل يوم ، ولكن تأكدي يالندل أنها لاتستطيع حكم القلوب وهذا قلبي يهتف بك ، ولن أبيعه أحداً سواك ، فارجعي وموعدنا الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟؟

ترجع لندل باكية تقول : إن الصبح لبعيد ،

ويسير جوليان وهو يذوب تلهفاً على لنـــدل وقد أذكت فيه عواطفه بانفعالها هذا ، حتى لم يعد قادراً على إطفاء جذوة نار الغرام ،

ثم يذهب إلى حجرة نومه ، ويستوى على سريره فيأرق ولا يجد إلى النوم سبيلاً ، يذكر لندل وهي تقول : إني لا أذوق طعم الكرى فيرق لحالها ، ويبادلها حباً بحب ووجداً بوجد ، فيرى أن سلوانها عليه حرام ، وهو لا يقوى على بعدها كما لا تقوى هي على البعد عنه ،

ثم يقول لنفسه وما حيلتي في ذلك وقـــد أصبح زواجي منها مستحيلاً بعد أن أعلن الملك خطبتي من نورا بين الأشراف والنبلاء ،

ورجال الكنيسة وإن لم أوافق جردنى من حقوقى كلها ؟؟

ثم يهب من سريره رائحاً غادياً كالمتألم من جرح أصابه ثم ينطق لسانه عن خبايا نفسه وهو لا يعى . يا ويلنا من تحكم الآباء فى الأبناء ، يا ويلنا من التقاليد التى نرزخ تحت أعبائها . تباً لك يا سامون سوف ترى منى ما يذهلك عن ولدك ،

ثم يرجع إلى نفسه بعد أن تهدأ ثورته قليلاً فيقول : ولم لا أتزوج لندل رغم الكنيسة والتقاليد ؟ ولم أطيع والدى فى أمر هو من أخص شئونى ؟ ثم ليطبقوا علىّ السموات ولينزلوا علىّ الصواعق وليجردونى من كل شىء ، فلندل أعز علىّ من كل شىء بل أعز على من الملك كله ، فساعة فى جوارها ولحظة من لحظاتها خير لى من الدنيا ومافيها ، وحياتى بدونها هى الحرمان الكامل ، كلا كلا ... لا أطيع هؤلاء الظلمة الذين يطلبون إلىّ أن أقتل نفسى بيدى ، ويحرموننى حق الحياة ويتحكمون فى قلبى ، ويسلبوننى حريتى فينطلق لسانه سأتزوجها سأتزوجها ، ثم لا يلبث أن يعود إلى نفسه ، وكيف أتزوجها وكيف أمزق هذه التقاليد ؟ وكيف أذلل هذه الصعوبات وهم لا يمكنوننى من ذلك ؟ ثم يجيب ولم لا أتزوجها زواجاً سرياً حتى يقضى الله لى ؟ ثم يسأل وهل ترضى لندل بهذا الزواج السرى وهى التى طالما نبهتنى إلى التقاليد ، وهى التى تقدس أوامر الكنيسة ولا تعترف بزواج لا يكلل تحت قبتها ولا يبارك من قساوستها ورهبانها ؟ وهل أصل إلى إقناعها ، وهى الفتاة التى يجادل

ضميرها عواطفها فى كل وقت ويتغلب عليها ولا ينام عن المحافظة عليها أكثر من أى رقيب ، هذه الفتاة التى أحببتها وأحبتنى وكم تناجينا وبثثتها شجوى وكشفت لى القناع عن قلبها ، حتى إذا ما طافت نفحة من عبير قلبينا منعتنى التلاقى وحرمتنى قبلة أثبتها على الأثير الطائر من روحها المتدانية ونفسها الملتهبة ، ولكن لكل ذلك نهاية فقد سقطت لندل كما هويت أنا ، فلم تطق البارحة هجرانى . وعادت إلىّ ذلولة ، غير أنها توقفت وحال ضميرها بينها وبينى ، ولم يقو على صدها ، إلا أن ضميرها استعان بضميرى عليها ، فردها إليه ثانية ، ولم تلبث نفسى أن تغلبت فلم أجدها أمامى ومحال أن تفلت منى بعد ذلك ، ثم تأخذه نشوة هى أشبه بنشوة الوصال . (تشرب كأسها النفس من يد التصور . ومن حنان شعور الوجدان ، فهى نشوة حقيقية ولو أن مصدرها الخيال) ثم يعاوده الصحو وهو لا يعلم أن صورتين من صور العمل ارتسمتا فى تصوراته ، وباتتا فى خياله ، يتنازعان نفسه وهو لا يقدر أن ينتصر لاحدى هاتين الصورتين ، ويرددهما فى نفسه لا يتزوج لندل هذا الزواج الذى يتعب ضميرها ويعرضها لسوء العقبى ، أو يتزوجها برغم كل ذلك ولا يحرم نفسه مذاق الكأس التى استلذ رحيقها فى وجدانه قبل أن يتذوقها على لسانه وكيف به لو جمع الروح والجسد ؟ ولا يزال يصحو ويثبت حتى يتنفس الصبح ، ويخرج مبكراً على غير عادته ويذهب الى الحديقة ، ويطوف حول المقصورة التى اعتاد أن يتناجى فيها مع

لندل غادياً رائحاً . وهـــو لا يستقر على حال ، ولا يعزم على أمر ، ولا يقوى على تفضيل رأى على رأى ، ولا يلبث أن يرى لندل تهرع للقائه إذ أحست بوجوده فيهرع إليها ، كأن زوجيهما تعاهدتا على اللقاء ونفسيهما اتفقتا على الميعاد ، فلم يتمالكا وغلبتهما عواطفهما ، فتعانقا تعانق المحبين لأول مرة ، ولكن فى لحظة واحـــدة تنبه ضميراهما ، وخفّا للنجدة من هذه المعركة الهائلة ، وشرعا فى إطفاء النيران المندلعة من عواطفهما الثائرة ، فالقيا الماء الطاهر فبلل وجهيهما وأطرقا من الخجل وخافا أن يكونا قد وقعا فى حبائل الغرام الفاتن فارتدا ، ولكنهما كانا بعد هذا الرجوع فى سكرة شربا كأسها وتبادلاها كلّ من نفس حبيبه وتمنيا أن يخرجا من هـــذه الورطة تحت ضغط حارسيهما ودفعهما ، ولكن جسميهما ثقلا من ثمالة الكأس لجاء الشيطان ودفع الحارسين عنهما وقال لهما اذهبا فقد أديتما الواجب ولم يعد فى طوق أحدكما إرجاع صاحبه ، فقالا له اخرج من بيننا حتى يفيق صاحبانا ، فقال لقد تركا صحبتكما إلى صحبتى واشتد الجدل بينهما وتنازعا ، أيهما أحق بالصحبة ؟؟ فظل حارساهما يناديان . أن استيقظا . ولكن كلاً منهما كان كالذى قال لأهله إنى على موعد مهم إن بلغته وصلت إلى السعادة وإن لم أدركه هويت إلى الفقر والشقاء ، وسأنام فأيقظونى حتى أبلغ الموعد فى وقته ، فيحاول أهله أن يوقظوه لميعاده فيستيقظ من نومه قليلاً ويقول هأنا قائم ثم لا يلبث أن يغلبه النوم فيعاودوه كرةً أخرى وهو يجتهد معهم

ولـكنه لا يهم مرة واحدة فيرفع ثقل النـوم عن نفسه بل يسترسل فى نومـه من حلاوة الغمض فى عينيه ولا ينهض ، فلا هو بالنـائم ولا هو باليقظان فاذا مافات ميعاده تركوه لشأنه وقد أوفوا له بعهدهم ،

كذلك كان شأن جوليان مع لندل أو قل شأن لندل مع جوليان شربا الكأس من اللقاء الأول حتى الثمالة فرجما يتقاربان وهما لا يدريان والعاطفة تثور عليهما ، فلا يريان طريقـا للخروج ولا يسمعان ، فانثنيا على المقعد كالأغصان التى شابكت الريح بين أوراقها ، ثم بكيا من نشوة الوصال أو قل من تخـوف اعتراهما فى الحال .

جوليان : لا تبكى يالندل ،

لندل : وكيف لا أبكى ياجوليان وقد كتب علىّ فى هذه اللحظة أن أموت فلا أسعد بالحياة بعد ، فان اتبعت الواجب مت ولا يصح أن أحيا وهل لمسلوبة القلب حيـــاة . وإن اتبعت حبك فقدت الشرف والواجب وهل لفاقدة الشرف والواجب وتقاليد المجتمع حياة ؟؟

جوليان : إنى أعتقد يالندل أن الواجب ألا أموت وألا تموتى ، إن الذى أوجد فينا هذه العواطف وجمعنا على هـذا الحب لا ترضيه هـذه التقاليد الظالمة ، وإنه لمن حقنـا ألا نقبل هـذا الاذلال المميت ، والتحكم فى عواطفنـا ، وستظل زهـــرة حبنا تروى بمياه عواطفنـا ولا تنقطع عن ريها الى الممات ، ثم يميل عليها ويقترب منهـا رويداً وهى تحنى رأسها فوق صدره باكية .

لندل : أما كنت تتمنى يا جوليان ألا تكون التقاليد عقبة بيننا وألا يمانع الملك فى زواجنا فلا نخاف اظهار هذا الحب ، ونتباهى به على أعين الناس ولا نتوارى به تحت وخز الضمائر وخوف التقول والفضيحه ، إنى أخشى يا جوليان أن نتزوج زواجا سريا . يكون خطرا على مستقبلك ، وأنت الرجل المرجى لنجدة أسبانيا وكل من فيها وعول لا خلاق لهم وذئاب لا أمانة فيهم ، وليس فيهم من رجل رشيد ، ولا أخاف عندئذ إلا أن تنسب إلىّ السبب ، وأنا بريئة ولا تهمنى نفسى وسواء لدى أكسبتك لنفسى ، أم تجرعت كأس الموت شهيدة حبك .

جوليان : سأتزوجك اليوم يا لندل .

لندل : إن هذا أمر خطير جدا وأنت تعلم أنى رهينة أمرك ولا أقوى على مخالفتك فتدبر أمرنا ، ولا تقض فيه قبل استنارة بصيرتك .

جوليان : إنى أعرف قسيسا يبادلنى رأيى ويعرف أن الحب قانون سماوى فوق تحكم الآباء وسجن التقاليد ، وهو يخلص لى كل الاخلاص ولا يفشى سراً أفضى به إليه وسأعود به مساء اليوم إلى جناحى الخاص ليعقد لى عليك فلا تتأخرى عن هذا الموعد .

لندل : وهل ترى فى مثل هذا الزواج ما تقر به العين .

جوليان : يكفى الحبيب الصادق أن تقر عينه بلقاء حبيبه وعليه أن يخلى قلبه وبصره مما سواه .

لندل : ألا ترى أن الزفاف بين أعين الأشراف والنبلاء وتحت ظلال الكنيسة وترنيمات القسس له روعة في النفس تجعل لهذا الزواج ذكرى لا تغيب عظمتها عن النفس مدى الحياة .

جوليان : إذا رغبت عني في هذا الزواج فما أحسبك تحبينني كما أحبك ، وها قد أديت إليك أمانة حبي كاملة ، والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين ؟

لندل : افعل ما ترى أنا بين يديك وشهيدة حبك وهواك .

جوليان : الآن اطمأن قلبي إليك ، فما أسعدنى بك ، لقد أحييت آمالى ، إلى اللقاء يا حبيبتى ، وانجزى وعدك الساعة الرابعة بعد الظهر فسأعد ما ينبغى ، ثم يقبلها وينصرف .

الزواج السرى

فتبقى لندل فى مكانها مبهوتة مما حدث كله أهى فى عالم الحقيقة أم فى عالم الأحلام ، وتسأل نفسها أوافقت أم لم توافق ؟ ولكنها تقر أنها وافقت ، برغم أنها راوغت ولم تعطه كلمة صريحة ، وتقول لنفسها لا أظن أن رباط الزوجية يبقى وثيق العرى ثابت الأساس بعيداً عن نزعات النفس ودسائس المفسدين إلا إذا تمت مراسيمه وحضره النبلاء وباركته الكنيسة ليكون الناس شهداء على وفاء الزوجين يقضون لأيهما إذا قصر أحدهما فى الوفاء بعهده ، ثم ترجع لنفسها ولم أقر له أنى

قبلت ، ولم لا أخاف الموعد ، ثم تقول إن فعلت فقدته ولا أستطيع الحياة بغيره ، ثم تأتيها فكرة أن تستشير فى أمرها أخاها أو إحدى صويحباتها فتشعر بخطر ذلك إذ يفتضح أمرهما وقد تأتى المشورة بما لا تهــوى ، وفى هاتين الطامة ، ثم تذهب إلى حجرتها وهى لا تستقر على رأى ، وترى فى نفسها انقباضاً وجزعاً وتتشاءم من مستقبلها ، ولو أنها لا تقوى على تحديد الناحية التى تتوقع التشاؤم منها ، ولكنها تحس أنها تدنو من الهاوية ، حتى إذا حان الموعد وجـــدت رجليها تحملانها إلى جناح جوليان وهى ذاهلة ولو أنها تُرى تمشى كثابتة الجنان .

أعد جوليان جناحه الخاص لحفلة الزواج السرى ، وزينه بأصص الورد وأعد وليمته لثلاثة لا تزيد ، وعاد مع القسيس قبل الموعد بقليل وجلس إلى المائدة فى مقابلتـه ، وما حانت ساعة الموعـد الرهيبة حتى حضرت لنـدل فأجلسها بينهما فاجتمع بذلك ثلاثتهم ، والله من فوقهم رقيب ، ورتل القسيس ألفاظ العقـد وأتم طقوسه وبارك لهما . وكتب لكل منهما نسخة من العقد ، فكانتا اثنتين لا صورة لهما ، ووقعها بامضائه ثم أعطى لكل منهما نسخة من عقـده ، ودعا لهما بالسعادة والتوفيق ، وأكل طعامهما وجلس ما طاب له الجلوس ، ثم استأذنهما وانصرف ، بعد أن أهداه جوليان هدية ثمينة تذكاراً لهذا الزفاف الصامت .

ودعا جوليان لندل إلى حجرته كزوجه لا كحبيبه ولا كخطيبه من خطيباته اللاتى تعودن مؤانسته قليلا من الوقت .

فتبعته لندل خائرة القوى ، من شدة ماهى فيه ، تكاد تخنقها عوامل نفسها الكثيرة ، وهي تكافح وتجاهد أن تظهر السرور والبشر أمام جوليان حتى لايشعر أنها تنازعه عواطفه وصوت ضميرها يناديها : أنت الآن مدنسة يالندل فتجيبه أنا شريفة طاهرة ، وعشت أبية عفيفة وأنا الآن أزف إلى زوجي .

ضميرها : ولم تخفين هذا الزواج يالندل ؟ أو لو لم يكن مريباً كنتما تخفيانه ؟

هى : إنى أخفيه قهرا عنى من ظلم الناس ، وليس حياءً من الله ، ولو كان مريبا ما أقدمت عليه .

ضميرها : إن الناس يسلبون أملاكنا ، ويمنعوننا القوت الضرورى ويظلموننا كثيراً ، فلم نحتكم إلى القانون العام ، وننتظر حكمه لنا أو علينا ، ولم نصبر على الحكم إن ظلمنا ، أتبيحين للناس أن يسرقوا إذن يالندل ، ويهدمون النظم والتقاليد ، ولا تبقى بعد ذلك أمانة ، إنك مسرفة يالندل .

هى ، إن هذا شىء وذاك شىء آخر ، وقد أعيتها الحجة ، وعلمت أنها تجادل عن نفسها فى قضية خاسرة .

ضميرها : إذا بقى جوليان وفياً لهذا الزواج ، وضحى بكل شىء فى سبيله وقمت من جانبك بمثل هذه التضحية ، فهو زواج مبارك ، وأما إذا عاودكما الشيطان فزين لكما أنه زواج شكلى لم يستكمل سيره

الطبيعى ، وسَهَل لأحدكما اللعب به فهو زواج شيطانى ، يسبب لكما النكد ويحول بينكما وبين السعادة التى تنشدانها فى أحضان الحب ، ولن تخلصى من ذلك كله ، فكم كان أمثال زواجك هذا سبباً فى هلاك المجتمع ، وكم هصر أمثال غصنك الرطيب ، فكرى بالندل إن الساعة دقيقة حاسمة لم يبق إلا لحظة وتهمين فى الخطر الماثل ، ولم يبق بينك وبين النجاة إلا قيد أنملة ، هيا بالندل وارجعى معى كأن لم يكن شئ .

جوليان : ماذا بك حتى تصبب العرق من جبينك الوضاء .

ولكن لندل أجهدها ضميرها ، فلم تعد تسمع لشيء سواه وكان ضميراً عنيفاً ، وكان وخزه قوياً ، فلم تكد تصل إلى حجرته حتى ارتمت على أول مقعد وجدته ، وأخذها الاغماء ، وانتشر العرق البارد على وجهها ، فأكسبها جمالا على جمال ، وفتنة على فتنة ، وكأن جمال البراءة والطهر خرج من قلبها على وجهها . فى حيرة إذ تقلقل من مكانه الأمين يسأل عن مصيره .

وجوليان لايفهم من أمرها شيئاً ، إلا أنها فى ليلة الزفاف اعتراها ما يعترى الفتيات فى مثل هذه الليلة من ذهول اللقاء بعد جهد الصبر وانتظار الأمل ، فيروح عليها ويخفف عنها إلى أن تفيق وتفتح عينيها فتتلاقى بعينيه ، وقد عجزا عن التعبير .

جوليان : مالى أبثك ما فى نفسى وتسكتين ، أن هذه هى الساعة الوحيدة التى طلعت علىّ فيها شمس الحياة ، وانبثق لىّ منها فجر الأمل .

لندل : لا تؤاخذنى ياحبيبى ، فى هذه الساعة فقدت سلطانى على نفسى ، وعلمت أن للحب سلطاناً أقوى من أى قوة تنازعه ، وهأنذا لا أمانعك ، أن تأخذ أمانتك فصنها ، ولا كفيل لى عليك إلا شرفك التليلد وضميرك الطاهر ولا شهيد علينا إلا الله .

ويتكفـــل بهما الحب فيسكب نفسه فى نفسها وتسكب نفسها فى نفسه ، وناما على سرير الغرام ، فانساهما أنهما إنمـــا يناماں على سرير الآلام .

الفصل الثانى

الزفاف الرسمى

كان جوليان مخلصا فى حبه كل الاخلاص ، وكانت لندل أكثر حبا وأعز إخلاصا . ولكنهما بعد هـذا الزفاف الصامت والدخـول السرى ، لم يهنأ بهذا الحب إلا قليلا وقليلا جداً ، فقد عاودتهما الأفكار وساورتهما الهواجس ، لايتمتعان بخلوة الأزواج إلا ما يختلسانه ، أشبه بالآثمين منهما بالمتزوجين ، ولا يتمتعان بمتع الأحـــرار ، ويتخوفان الفضيحة وهتك الأستار ، وفوق ذلك لا تغيب شمس يوم واحـد حتى تسمع لندل همساً فى القصر أن حفلات الزواج باتت قاب قوسين أو أدنى ، حيث تزف مريسيا إلى غيطشة ولى العهد ، ونورا إلى جوليان ، فتجزع لمصيرها ، ويرتجف قلبها ، وتكثر هواجسها ، وهى تكتم ما فى

نفسها عن جوليان ، حتى لا تؤلمه ولقد أدرك جوليان فى اليوم الثانى من زفافه إلى لندل أنه كان متسرعاً ولم يتدبر أمره ، وأنه أساء إلى لندل كما أنه أساء إلى نفسه ، بانقياده إلى حبه واستسلامه لعواطفه ، وهما لا يجدان مخرجا ، والقلق بادٍ على وجهيهما ولو أنهما لا يبديانه كلا فيما بينهما ، ولا لأحد من الناس ، حتى استدعى الملك جوليان فلما مثل بين يديه ، وجد غريمه سامون جالسا فى حضرته ، وشعر أن ساعة العمل تدنو منه سريعاً .

الملك : قررنا أن يكون يوم زفاف ولى العهد وزفافك يوم أول يوليو المقبل حتى يكون يوم عيد عام لأسبانيا ، ويوماً من أيامنا المجيدة ، وحتى تكون حفلات الزواج غاية فى العظمة تامة الرونق .

جوليان : أفهم أن هـذا الأمر يهم ولى العهد وحده فانى لا أحب تعجيل الزواج .

الملك : لقد تم اعداد كل شىء فلا أسمح بتأجيله .

جوليان : أعلن أنى لا أحب الزفاف إلى نورا ، لتكون جلالتكم على بينة من الأمر .

الملك : هذا أمر قد انتهينا من البحث فيه ، وما دمت قد أمرت بهذا الزواج وأعلنته لأسباب تهم المملكة ، لأربط بينى وبين من يوالون مجد أبيك ، برباط المصاهرة ، الذى يوثق الصلات ، ويقوى عصبيتنا ، فلا يجوز لك أن تعارض فيه .

جوليان : فاذا كنت لا أقبل هذا الزواج ؟

الملك : أجردك من اسمي واسم الأسرة ، وتنفى من البلاد ، أيها الولد العاق .

جوليان : ياجلالة الملك إن الأمر الذى تدعونى إليه أمر خطير وهو يخصنى وحدى ، وكنت أحب من عطف الوالد ونبله أن يترك هذا الأمر لصاحب الحق فيه ، فقد يترتب على إذعانى له أمور تسئ إلى المملكة فى المستقبل ، أكثر مما تفيدها ، وإنى أعلم أن زواجى من نورا وزواج ولى العهد من مريسيا فى وقت واحد ، يقطع على بقية النبلاء أملهم فى مصاهرة أحد منا ، فاذا أرجئ زواجى إلى حين فانه يفتح باب الأمل فى المصاهرة للجميع ، فأرجو ألا تقطع فى هذا الأمر الآن على الأقل .

سامون : ليسمح لى جلالة الملك أن أشرح للأمير جوليان أسباب التعجيل وإضرار إرجاء زواجه من النبيلة نورا بنت غرديق ، ثم يتجه الى ناحية جوليان . إن إرجاء هذا الزواج ، لا يفتح أملاً بل يسبب كثيراً من سوء الظن ، ويزعزع روابط الأسرة ، ويسئ إلى مركز جلالة الملك ، حفظ الله أيامه ، ورعاه من أعين حاسديه ، ونصره على أعدائه .

أيها الأمير النبيل ، إن أصحاب الاقطاعيات ونبلاء البلاد ، أعتزوا بأنفسهم ، وظهرت منهم روح التمرد والعصيان ، ولم تبق رابطة تربطهم

بملكهم الأكبر لم يصبها الوهن سوى رابطة التقاليد ، فان لم نحسن سياستنا ونحرص على ألا تزول أو تضعف انقسمت البلاد على نفسها ولم تبق هناك هيبة لحاكم أسبانيا الأكبر ، وتزداد كل يوم فى قلوبهم الأطماع ، والرغبة فى التخلص من حكمنا لهم ، وانفرد كل منهم بولايته وإقطاعيته ، ألا ترى أنهم الآن قد استبدوا وأصبح كل منهم يعتقد أنه ملك مستقل ؟؟ لقد مردوا على النفاق والتلون ، واستقرت فى نفوسهم الأطماع الشخصية المهلكة ، يفرضون الضرائب من تلقاء أنفسهم ، ويستحلونها لمنافعهم ، ولا يؤدون حق الملك منها ، ويشترعون قواعد يسيرون عليها فى ولاياتهم ، بدون استشارة ولا استئذان ، وإن أمرهم الملك بأمر لا يقومون بتنفيذه ، وخرجوا علينا ، وشقوا عصا الطاعة وانتهكوا حرمة الاتحاد والجماعة ، ولا نستطيع الآن إخضاعهم ، وردهم عن غيهم ، إلا إذا جردنا عليهم جيشاً جراراً ، لم نعده بعد ، ولقد شرعنا فى تنظيم الجيش ليرهبه من تسول له نفسه الانتقاض على الملك ، ولن يقوى الجيش على مناهضتهم حتى نغذيه بشخصيات قوية ، أمثال شخصية الأمير ، وحتى نربى فيه قوة معنوية ، وحماسة تدفعه لحرب هؤلاء من أجل الملك ، وأنت تعلم أن غرديق رجل عظيم له نفوذ وهيبة ، ويرجح الفريق الذى ينضم إليه ، وقد خطب والدك منه نورا لسموكم فازداد تعلقه ببيتكم ، وأصبح من أشد أنصاره ، فان لم تقبل الزفاف إلى كريمته بعد الذى شاع وذاع ، إعتقد أن هذه إهانة لشخصه

وثأر لـكرامته ، وانضم إليه تيودورا وتميش ، ولا أخفى عليك أن له يداً على لا أجد بداً من الوفاء له بها ، وهو سندنا ونصيرنا فيما نحن مقدمون عليه فى مستقبل الأيام ، وأما لذريق فهو رجل خطر دساس ، لا يؤمن جانبه ، وهو يخفى بين ضلوعه حقداً على بيتكم يأكل قلبـه ، ولا زال دائب التودد لمنافسيكم يزرع بذور الفتن ويؤلب النبـلاء على ملـككم ، فالأولى أن تطيع جلالة والدكم فيما يطلبه منك ، كما أعهد فيك من الوفاء والحب لجلالته والحرص على تمتع أسرتكم بحقها القديم فى امتلاك سرير الملك . وإنك أمير من بيت الملك لست كأحد من أفراد الشعب وإن حقوقك الشخصية فى هـذه الحال ليست رهن مشيئتك وهواك ، ويجب أن تجود بها لحياة أسبانيا وفـداءً للعرش ، والأمر لجلالة الملك يصرفه بعظيم حكمته .

جوليان : أيها المستشار العظيم ، لا أرى مبرراً لهـذا التصوير المزعج ، والتهويل فى توقع فتن لم ينكشف عنها غطاء ، وسردها على هذه الصورة ، هو إيقاظها ، ولا يمكننى أن أفهم هذا التهويل ، إلا إنه ...

يقاطعه الملك ، وقد اكفهر وجـه سامون ، وأصبح جـو الجلسة مكفهراً ، وتقطبت الوجوه ، وأصبح كل شئ ينبئ بالشر .

الملك : قف عند هذا الحد ، ولا يصح أن تخاطب مستشارنا العظيم بهذه اللهجة ، يا قليل التجارب ، فان لم تعتذر إليه فوراً أحسنت تأديبك ، فانى لم اسمع هـذه اللهجة النابية إلا منك ، وإن لم تقبـل

ما أمرتك به دون معارضة ، فسأجردك من اسمى وأحرمك من كل شئ ، ولسوف أنفيك من هذه البلاد ، لأنك لا تستحق أن تكون من أبنائها ، أخرج من فورك فلا أحب أن أراك .

سامون : يا جلالة الملك ، إن الأمير لم يقصد إساءتى ، وهو يرى من أعين المتملقين إليه مدحا وتوريطاً ، وتظاهراً بحب العرش والولاء له ، وهم الذين يراهم ولا يعرف بواطنهم ، ولو أنه خبرهم مثل ما خبرناهم ، لوجدنا غير مسرفين فيما فضحناه من مستور أمرهم ، وكشفناعنه من خبيث مكرهم ، وأنا لذلك كاره غير مرجف ، لايحدونى إليه إلا الاخلاص ، وواجب المشورة ، وكل ما أرجوه الآن من جلالة الملك أن يمهل الأمير يومين ، ليفكر فيما يؤول إليه أمره لو خالف طاعة جلالتكم .

ثم يومئ إلى جوليان ، أليس كذلك ! فيجبن جوليان فى موقفه ويتهيب والده ، ويخشى المعارضة فيمكّن لسامون فرصة الانتقام منه ، ويسبق لسانه تفكيره فيجيب ،

جوليان : أوافق

الملك : انصرفوا وإذا لم يعطك جوابه بالقبول فى خلال هذه المدة فنفذ ما أمرتك به يا سامون .

خرج سامون من حضرة الملك ، وأسارير وجهه تفيض بالبشر والسرور ، وأحس بنشوة النصر على جوليان ، وذهب ليبشر الكاهن

وشقيقته مريسيا بهذه الأنباء السارة . وبقوة دفاعه أمام جلالة الملك حتى انتصر على جوليان .

وأما جوليان فقد انصرف إلى بيته حزيناً كاسف البال ، تغلى مراجل الحقد فى صدره على سامون الذى انتصر عليه ، حتى أصبح الملك لا يرضى له قولاً ، ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، فأمسى ولا مخرج له من ورطته إلا الرضوخ وقبول التزوج من نورا ، وهذا حتى لو قبله فلا يحول بينه وبين الأخطار التى تليه إذا انفضح أمره مع لندل ، فسوف لا تقف الكنيسة مغلولة اليد أمام هذا الحادث ، وستعتبره زنديقاً ملحداً ، وتعاقبه بأنه خدع امرأتين ، وزوّر فى وثيقتين ، الوثيقة الأولى مع لندل ، إذ لم تكن شرعية ، لأنها لم تثبت فى سجلاتها ولم تعلن ، وفى الثانية لأنه أخفى الأولى ، وفى هذا تجد مريسيا سلاحاً قوياً للانتقام ، وينضم إليها لدريق انتقاماً لشرفه ، ثم يرد على نفسه ، إن هذا لا يعنينى ، فان لندل تخاف على شرفها واسمها ، فلا تجرؤ على إفشائه ، والقسيس الذى عقد لنا مدين لتجرّئه وإقدامه على هذا العمل ، ويخاف أن أنتقم منه ، فلا خوف من هذه الناحية ، ولكنى إذا قبلت هذا الزواج كنت خائناً لعهد لندل ، وأين تذهب مواثيقى لها ، فضلا عن أنها سوف تهجرنى ، ولا أقوى على هجرانها؟؟ إنه لا يستريح ضميرى مطلقاً لهذا كله ، وأبقى مزعزع النفس ، فاقد الشرف أمام ضميرى طول الحياة ، سأرفض هذا الزواج ولو كلفنى حياتى ، وليفعلوا

بى ما يشاءون ، فيناديه شيطانه : ما هـذا الورع ، وما هذه الطهارة التى لا مبرر لها ؟ أيها الطفل الساذج ، أتفقد كل حقوقك من أجل امرأة ، وأمثال هـذه الحوادث كثير ، وكم ضمت القصور والمقاصير أمثال حادثك هذا ، ولم يكن إليها كبير التفات ، وكم خدعت أمثال هذه المرأة كثيراً من الرجال ، وتعرضن لهم بجمالهن وفتنتهن حتى أوقعنهم فى حبائلهن وهن يظهرن الطهر والامتناع ، فلم يكلفوا أنفسهم مثل هـذه التضحية الجسيمة المريعة التى تنوى الاقدام عليها ، وهـل تظن أيها الغر المفتون ، أنها ترضى بك وأنت مجرد من حقوقك ، صعلوك من الصعاليك ، منفى مشرد ، وإن قبلت هى فلا يقبل أخوها لذريق الذى يعبد العظمة والمظاهر ولا يقبل تزويجها منك ، وأنت ملفوظ مطرود من بيت الملك ، فلا أنت الذى كسبت نفسك ، ولا أنت الذى ربحتها بمغامرتك ، وعلى فرض أنها أتمت مغامرتها معك ، ولعبت دورها إلى النهاية ، وقبلت هذا المصير المؤلم ، أتضمن أنها لا تسأم منك وتلعب بك ، ثم تملك فى النهاية بعد أن تزول عنها غشاوة الغرور بمركزك ، فتحب التخلص منهـا وتتمنى أن تزول من أمامك ، إنك يا جوليان فى مثل هـذا الموقف ، تكون كالذى بحث عن حتفه بظلفه ، فتفقد كل شىء ، الشرف والحب ، والواجب والحياة ، فلم تكلف نفسك ما تعانيه الآن ، من سقوط الهمة وركود الادراك ، والانحطاط عن مراتب الرجال ؟؟ كيف تستولى امرأة على مشاعر رجل جليل القدر مثلك ، حتى يتنكب سبيل النجاة ،

فتفقد حقوقك فى المجتمع ، وتفقد مستقبلك ، وما أنت مقبل عليه من نباهة الشأن وجليل الأعمال ؟؟

يا جوليان إن المرأة متاع للرجل ، ولا تساوى أكثر من حلة يرتديها ، فاذا ملها وجد غيرها أحسن منها هنداماً ، وأجمل ملبساً ، وأحلى رونقاً وبهاءً .

يا جوليان أفق من غفلتك ومن تصور الفضيلة تصوراً أعمى ولا تغال فى تصورها ، فحرصك على عهدك وشرفك أمام امرأة قد يجعلك غداً أكثر انحطاطاً وسقوطاً فى حمأة الرذائل ، فان جردت من حقوقك ونفيت وشردت فلا تظن أنك ستبقى أميراً معظماً ولا غنياً منعماً ، بل ستكون فقيراً معدماً ، ولا يقوى على أعمال الفعلة أمثالك المترفون ، الذين عاشوا فى رفاهة العيش ووافر النعمة فلا تجد ما تمسك به رمقك ، ولا ما تقوم به أودك ، والجوع يؤدى إلى بيع النفس والعرض والشرف وعندها تنحط همتك وتكون من الأخساء الأنذال

يا جوليان لِمَ تصرف نفسك عن التفكير فى نورا ؟ ولِمَ تطفئ نور روحها من خيالك وإنها لفتاة جميلة لا تقل فتنة ورشاقة عن لندل ، وإن خفة لندل على نفسك لم تأت إلا من مخالطتك لها واستماعك لحديثها فهمت بها وعلقت بحبها فتعاميت عن جمال غيرها ، وإنك لولا طفت نورا وحادثتها حديثك للندل ، لوجدتها أكثر خفة وأرق روحاً وأعذب حديثاً ، بل قد تكون أطيب قلباً وأصفى سريرة ،

يا جوليان لِمَ تخالف الملك وهو أكثر منك تجريباً ، ولِمَ تمكّن لسامون أن يفرق بينكم ويبذر الضغينة فى قلوبكم حتى ينال متمناه وينتقم منك ومنهم واحداً فواحداً ؟ فيجيب جوليان شيطانه .

كيف أقف أمام لندل ، وبم أجيبها إذا قبلت ذلك ، وإن لدريق إذا عادانا ، كان أشد خطراً من سامون ، وإنه يخلص لى ولأبى كل الاخلاص ، ويقول لى إنك أحق الناس بولاية العهد وبالملك ، ويعتقد رجاحة عقلى وسداد رأيى ،

فيهتف به شيطانه ثانية ،

أيها الغر الأبله ، لا تظن أن أحداً يخلص للملك عن عاطفة مجردة عن المنافع وحب الجاه فى ظلال الملك ، إلا القليل من أولئك الذين لا يستطيعون الوصول إليه ، والذين ارتفع مقامه عن التحدث إليهم ، وسماع مناجاتهم وإخلاصهم ، وإن لدريق أطمع فى الملك من سامون ، وما عليك من لندل ؟ خفف من لوعتك عليها وشغفك بها ، وتنح عنها رويداً رويداً ، حتى تشعر بجفائك ، فتجافيك ، فتعاتبها معاتبة من لا يودها ، فاذا لاح منك لها فاتر الحب ، انصرفت عنك ، ولا تلبث أن تراها حاقدة عليك ، فتتنصل من عهدها ، وقد أعطتك حجتك عليها ، فيرد على شيطانه ، اخسأ عنى أيها اللعين ، إن هذا لؤم فى الطبع وخسة فى النفس ، إن لندل رغبت الى كثيراً فى إرجاء زواجى منها ولطالما حذرتنى أن أقف هذا الموقف المزرى ، أفنصل إلى هذه

النهاية المؤلمة من حبنا الطاهر ؟؟ إرجع أيها الشيطان فان نصحك سموم ، تخادعني حتى أتردى فى هذه الرذيلة فلا أرهب بعدها اقداماً على منكر .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـــرح بميت إيلام

كلا ، سوف لا أقبـــل الزواج من نورا مهما ألق من عنت واضطهاد ، فأرضى ضميرى وخالقى ولا أكون نذلاً ، استضعف قلب امرأة استأمنته على شرفها وطهارتها فخان أمانتها وألقاها كما يلقى قشرة الفاكهة بعد تذوقها ولا أظنها تخون عهدى ،

ومضى يومان وهو يخاصم نفسه ويخاصم شيطانه ويجادل ضميره وهو كالذى استهوته الشياطين حيران حتى نسى طعامه وشرابه ، يناديه المنادى كأنه ينادى من مكان بعيد لا يحس به ، إلا إذا نادى بأعلى صوته أو نبهه بيده ، شارد اللب ، يتوجس خيفة من غده ، وجاءته لندل تبكى .

لندل : ما الذى أهمك وأقلق بالك يا حبيبى ؟؟

جوليان : لا شئ ،

لندل : لم يعد الأمر خافياً على أحـــد ، ولمَ لم تخبرني بما قرره الملك ؟؟

جوليان : وأى شئ قرره الملك ؟؟

لندل : أصبح معروفاً ، أنه قرر أن تزف إلى نورا فى الأسبوع المقبل ، وإلا جردك من حقوقك .

جوليان : ولكنى سأرفض ذلك لأنى لم أوافق إلى الآن .

لندل : ولـكنك إذا رفضت معناه . . . . ثم تخنقها العبرات .

جوليان : معناه أنى لا أحب أن يتحكم أحد فى عواطفى بثمن بخس ؟ لقب الامارة واسم الملك ، ويكفينى أن أملأ قلبك وأجلس على عرش ودك .

لندل : أنا لا أحب أن تـكون ضحيـة حبى ، وأحب أن أكون أنا الضحية ، فانى أكثر حباً لك وحرصاً عليك ، وما دمت وفيـة لحبك وأنت وفى" للندل فلن يصيبنا شئ ، وأما إذا رفضت الزواج من نورا ، فسوف تخسر حقوقك كلها ، وسوف لا أنفعك إذ ذاك ، وأية خسارة بعد ذلك ؟ فلا تخف وأسرع وبلغهم موافقتك على هـــذا الزواج ، فلم يبـق إلا وقت يسير حتى تنقضى المهلة ، ولا تعتقد أنى متألمـة ، أو أن قلبى يتحول عنك ، وقد علمت موقفـك أمام الملك ، وأمام سامون وعلمت مقدار امتناعك ، وأنا لا أقوى على رؤيتـك ، وقد قرأت فى وجهك مبلغ ما تعانيه ، فيبكى جوليان .

جوليان : كفى اتهاماً لى يالندل ، فانى لست ممن يخونون العهود .

لندل : عفواً ياجوليـان ، فأنا التى أمنحك هـــذا الحق ، وأستحلفك بحبى لك ، وحبك لى ، وبكل عزيز لديك ، ألا تتأخر حتى تفوت المهـلة ، فتمكن لسامون فى فرصة الانتقام ، ويفقـد بعضنا بعضاً إلى الأبد ، ارحمنا ياحبيبى من الهلاك ، ثم تميل عليه باكية راجية ملحة .

جونيان : ليس هذا يالندل آخر سهم عنده ، فانى أتوقع أننا إذا

خضعنا له سيرمينا كل يوم بجديد من سهامه ، ووشاية من وشاياته ، ولطمة جديدة من كيده ودسه ، فانه لا تقر له عين ولا يهدأ له بال ، حتى يقصيني عن دار الملك ، وقد جعل والدى لا يستطيع التحدث إلىّ ، وقد أصبحت مقابلاتى له خاضعة لأوامره .

تبكى لندل وتتوسل إليه أن يذهب ويقرر قبوله الزفاف إلى نورا

لندل : يا جوليان إن نورا بنت خالى ومثلى تماماً وتخلص لى وهذا يسليني فلا تجزع من أجلى وفكر فيما يجب عليك الآن .

جوليان : سأخضع لالحاحك : وأستجيب لأوامرك ، ولكن كيف أقوى على البعد عنك ؟

لندل : سوف لا أفارقك وسأبقى لك طول الحياة مهما يكلفنى ذلك ، وأنا أعدك بذلك وسأوفى .

جوليان : وكيف يتوافر لى ذلك إذا زففت إلى نورا وأنا لا أطيق أن أراها بديلة منك ؟

لندل : هوّن على نفسك ، إنها أخبرتنى أنها ستزف إليك ، وحدثتنى أنها تشعر بعدم ميلك إليها ، وهى تخافك كثيراً ، وقد رجت منى أن تتخذنى وصيفة شرف ، لأنها تلاحظ أنى موفقة فى اختيار ما يرضيك ، فلم أقبل ولا إخالها إلا ستعاودنى مرة أخرى فاذا حدثتنى ثانيةً فسأقبل منها ، إذهب فقد طار صوابى من تأخرك !!

يقف جوليان ويعانقها باكياً ،

جوليان : تضحين بنفسك من أجلي يا لندل ؟ سوف لا أنسى وفاءك هذا ما حييت ، فأنت الطاهرة الحب ، الوفية المخلصة ، أنت حياتي وروحي ، وسنبقى حبيبين ما عشنا يا لنــــدل برغم الحوادث والأيام والليالي ، وسأذكر مواقفك هذه مني في كل نفس يتردد ، وهذا دمي أدعه ضماناً في يديك لوفائي ورهينة لعهدي ، إمنحيني الحياة إذا شئت واسلبيها أي وقت تشائين يا طاهرة القلب ، يا فياضة الحب ، يا نبيلة العواطف ، يا ذكية الدم ، يا عزيزة النفس ، لم تجدي أعز منها عليك فجدت بها عليّ ، وها أنذا أكرر لك أني أدفع دمي ثمناً لوفائك فأهرقيه متى شئت تطهيراً لك وتزكية لنفسك .

تتأثر لندل وتستمر باكية ملحة عليه ،

لندل : أنا أوثرك على نفسي ، ولم أفعل إلا ما يمليه عليّ الحب النزيه الخالص أمام حياة من أحب مجده لأستبقيك لنفسي ولا أحرم من مشاهدتك غادياً رائحاً تهب عليّ أنفاسك العطرية ، ثم بلغ الحب من نفسيهما حالاً منعتهما من الكلام إلى أن انصرف جوليان قبل أن ينتهي اليوم المحدود وذهب إلى سامون وقرر له قبول الزفاف إلى نورا في اليوم المقرر ليبلغ الملك ، ولم يكن في خلد سامون أنه سيقبل هذا الزفاف بمثل هذه السهولة فبهت وكأنه لم يسمع ، فأعاد على جوليان ، ما هو قرار سموكم ؟ فأجابه جوليان بفتور ، قررت قبول الزفاف من نورا في الموعد المقرر وبلغ الملك الليلة ، ثم تركه وانصرف .

لم يمض غير ثلاثة أسابيع من زواج لندل السرى حتى كانت أفراح الزفاف واعلامه ترفرف فى كل مكان ، وبنات الأشراف يحطن بنورا ومرسيا إحاطة الهالة بالكوكب ، مهنئات يغنين أغانى الفرح ويرقصن طربا ، وقد ألحت نورا على لندل أن تبقى إلى جانبها وصيفة شرف لها ، فقبلت رجاءها ، تضحية ثانية لحبيبها جوليان ، وانتهت ليلة الفرح وذهبت لندل إلى مخدعها ، فطالت عليها ليلة الألم ، ولم تشعر بالغيرة تضطرم فى نفسها إلا فى هذه الليلة ، لا تدرى أهى من بهجة الفرح وروعته وهى ليست عروس تلك الليلة التى تتهادى فى مشيتها ، وتدل بين حاملات ثوبها وصويحباتها ، أم تولدت عندها الغيرة حينما رأتها تسير مع جوليان جنباً إلى جنب وهى ذاهبة إلى الأكليل وراجعة إلى مخدع الزوجية الطاهر الأمين ، ثم شعرت أن الغيرة تحولت إلى نورا ، ثم أخذت تناجى نفسها :

هى : ما ذنب نورا إلا أن حظها سعيد ، وأنا سيئة الحظ ، إذ سقطت أمام عواطف الحب النارى المحرق .

ثم لا تقوى على الغيرة التى تمزق قلبها فيناديها شيطانها .

شيطانها : لندل : لن تخلصى من هذا الشقاء إلا إذا قتلت نورا ، وليس هذا من العسير عليك ، فدسى لها سماً خفياً ، ليخلو لك ولحبيبك الجو ، وإنك ستهدين إليها جميلاً اذ ستنقذينها من شقاء الحياة ومن هذا الزواج الخالى من الحب الذى لا روح فيه ، أنقذيها قبل أن تقوى

آمالها الكاذبة وتتشعب ، وقد تكون غداً أشقى منك فالذين يعيشون في القصر أقل الناس هناءة ولو أن الناس في الواقع لا يغبطونهم إلا على ما هم فيه من شقاء نفساني أشد من العذاب الأليم ، هيّا وأنا أساعدك على العمل .... فتذوب في نفسها من هذا النداء وتود لو أنها قتلت نفسها قبل أن تسمعه فتخاطبه :—

أتريد أن أبوء بإثمي وآثام الناس كلهم ؟ إخساء عني أيها الشيطان اللعين ، أأقتل نورا تلك الفتاة الطاهرة الطيبة القلب ، التي طالما تحدث أهل القصر إليها بحب جوليان لي وأني خطيبته الأولى من بين خطيباته اللاتي تحدثوا إليها بشأنهن ، وطالما رأته بجانبي يحادثني ، ومع كل ذلك فهي تطلبني الليلة إلى جانبها في حفلة الزفاف ولا تحمل لي في نفسها إلا كل حب وثقة واخلاص ... ولكنها برغم كل ذلك تشعر في نفسها بغيظ شديد ، وانقباض لا تقدر على احتماله ، وتطوف بخاطرها خيالات لا تقوى على دفعها ، ثم تقول : كان يمكنني أن أوافق جوليان على رفض الزواج من نورا ، فلا يخضع لتهديدهم ووعيدهم ، وكان على أتم استعداد لتنفيذ ذلك ، فياويلي من تسرعي ورعونتي .

شيطانها : لو كان مستعداً لذلك كما تدعين ما قبل منك هذا الرجاء ولرفضه رفضاً قاطعاً ، لأنه يفهم جيداً أن هذا رجاء من لا تود أن تكون مسئولة عن هذه التضحيه أمام حبيبها ، إلا أن يقدمها راضياً مختاراً قرير العين بما فعل ، لكنها خدعة الرجال تجوز على مثيلاتك

من المفرطات ، فان لم تقبلى قتـــل نورا فاقتليه إنتقاماً لنفسك لتهدأ أفكارك من هـذا النزاع الذى يذيب مهجتك وأنت فى ريعان الصبا ونضارة الشباب ، واعلمى أنه لو لم تطلبى منه الاذعان لظهر لك صدق قولى هذا عندما كنت تجدينه ذاهباً إلى زفافه بدون أن يعبأ بك ، ولكان موقفك اليوم أشد حسرة وندماً ، ولـكنك سهلت له طريق الخداع ومرق منك بلا رجعة ، فلا ترددى فى الانتقام ، وإلا فأنت امرأة سكبت دمها فى الوحل فأصبحت عديمة الاحساس .

هى : إذهب عنى أيها الشيطان الرجيم ، لم أفعل إلا الخير ، هو الآن يفهم أنى آثرته على نفسى ، وأنى صاحبة الفضل عليـه ، وسيبقى وفياً لى حياته ، وهـذا يسعدنى ويكفينى ، وقد عاهدنى على ذلك ، ولا أحسبه إلا موفياً .

شيطانها : انك يالندل تخدعين نفسك بمعسول أقوال الرجال ، ألم يخدعك أولاً حتى استولى عليـك بذلك الزواج السرى المشئوم ، وعاد الآن فقرط فيك من أجل نفسه ، وسيفرط فيك يوماً فيوماً حتى يزهد فيك ويملك ويسأمك وحتى تصبحى أمام نظـره كالجيفة القـــذرة ، ويتصورك امرأة لعوباً هويها يوماً ما هوىً مغرياً ، لا أثر للفضيلة فيه وليس للعزة والكرامة فيه معنى ، كبغى هوت من أفق مجـدها وسماء فضيلتها ، لا تمتاز إلا بأصل شريـف ، اقتلعت جذوره يوم أن قبلت هذا الزواج المدنس ، ولم تنظرين إليه يالندل نظرك للأشراف الأطهار وما

يدريك أنه كان يخدعك من أول يوم دعاك لهذا الزواج الفاسد ليروى ظمأه منك ، وأنه أتقن تمثيل دوره أمامك لتجوز عليك الحيلة ، وهل تظنين يا لندل أنه الآن يثق بشرفك ؟ كلا ، إنه الآن يعتقد أنك صرت لا ترهبين أحضان الرجال أو على الأقل من النساء المشكوك فى طهارتهن ، وهل تظنين أنه سيصبح بعد تذوقه نورا واستيعابه لجمالها وفتنتها الليلة سيظل كسابق عهده معك ، إنك تخدعين نفسك إن كنت تظنين أن جمالك أروع من جمال نورا ، وأن سناك أبهى من سناها ، هيا اسرعى إلى الانتقام من هذا الوغد الاثيم . انتقمى منه انتقاماً تسير بذكره الركبان فى جميع الآفاق ، فان قتلت بدمه تجاورتما فى الحب أو فى العذاب جزاءً بجزاء ،

هى : تباً لك أيها الشيطان الأثيم ، وتباً لك أيتها النفس الموتورة ، أأصغى لهذا الشيطان الذى جرنى من أول الأمر لهذا الموقف ، ويريد منى أن أخسر بعد ذلك دار الدينونة ... أأحنق على الحبيب وأنسى الحب ، وهل فى الحياة لذة بغير الحب ، وهل يجتنى اللذائذ من لا يتذوق الآلام ؟ ، سأبقى وفيةً لحبه ما حييت ،

وهكذا ظلت وحيدة فى جيش من الهواجس والأباطيل ، وراحت تهذى هذياناً لا حد له ، وكأن هذا الزفاف كان ناراً تصطليها وتتقلب فى سعيرها ، ومرت هذه الليلة كأسود ما تكون الليالى فى تاريخ حياة امرأة ، ولم تكن فى لياليها التالية أسعد حالاً منها فى ليلتها

هذه وصارت كلما مر عليها جوليان ، أو كلما آوى إلى جناح نورا تظن به الظنون وتثور فى نفسها حوله الشكوك ، حتى كادت تصدق شيطانها فيما نزغ به وفيما ألقى فى أمنيتها ، وأوشك أن ينتصر عليها ، واشتدت عليها ثورتها حتى ظهرت وانكشفت لجوليان ، فكان يرثى لحالها ويروح عنها قدر ما يستطيع فى الوقت القليل الذى كان يختلسه من نورا ،

الفصل الثالث

سامون ودسائسه — لندل وهمومها

لم تمض ثلاثة أشهر على الزفاف الرسمى ، أو قل أربعة على زواج جوليان السرى ، حتى أصابته شظية أخرى من نار حقد سامون ولطمة من لطماته ، ففى مساء يوم طلب سامون مقابلته فى جناحه الخاص ، فأذن له جوليان مع كراهة لقائه ولكنه أصبح يخشاه خوف أن يكون مطلعاً على بعض أسراره ، ويود مهادنته حتى يجد سبيلاً للانتقام منه .

سامون : عم مساءً أيها الأمير .

جوليان : طاب مساؤك يا سامون (ثم يجلسان) لا يدعوك لزيارتنا فى هذا الوقت المتأخر إلاّ امر مهم فعسى أن يكون خيراً ، وما أكثر متاعبك فى هذه الأيام التى تحتاج يقظتك واهتمامك ، فأصحاب الأقطاع يطلبون نقص عدد الجيش حتى لا يتحملوا جزءاً من نفقاته ، وأهل البلاد يشكون ظلم الجباة ، وأخشى أن تصدق نبوءاتك فيهب

الشعب للثورة .

سامون : يا سمو الأمير جئت فى أمر خطير أود أن اطلعك عليه ، وهو أن جلالة الملك يريد إبرام أمر جديد ، يغير نظام وراثة العرش .

سمع جوليان هذا الخبر كما يسمع حكم الاعدام ولكنه تمالك نفسه وأراد ان يسخر منه وحاول أن يظهر له أنه لا يعلم هذه الاخبار مع أنها ترامت إلى سمعه من قبل .

جوليان : أنا اشعر أن والدى راض عنى تمام الرضى ، لأنى نفذت جميع رغباته ، وأعتقد أنه الآن يريد مكافأتى وإعطائى حق ولاية الملك من بعده ، ويحول بينه وبين غيطشه لأنه رجل هادىء وعلى فطرته ... وأنا من جهتى لا أوافق على ذلك لأنى احمل لغيطشه منتهى الحب والاحترام ، وأعتقد بأنه موفق برغم هذه الصفات التى يبدو لجلالة الملك أنها صفات لا تصلح لتحمل اعباء الملك وسياسته .

سامون : يا سمو الأمير ليس الأمر كما فهمت ، وأحب أن اصرح لك بجلية الأمر الذى جئتك من اجله ، إن جلالة الملك يشكو أنك لا تهجر القصاصير ومجالس بنات الأشراف حتى بعد زواجك ، فأصبح ذلك حديث أهل القصر والغادين والرائحين من النبلاء واصحاب الأقطاع ، وظهر لذلك أثر سيء ، وتناقل الناس من ذلك احاديث عن علاقات لك ببعضهن غير مشرفة ، لا أقول أنها حقيقة ولكنها ترتبت

على اختلاطك هـذا ، والذى يسوء جلالة الملك أكبر الاساءة سماعه عنك ذلك ، ومن اسباب عـدم رضـاه ايضا انك لا تدعى فى شأن من الشئون التى تهمه إلا اعتذرت ، ولا تعنى بالأمور المهمة التى تشغل باله وتقض مضجعه ، وكان الأولى بك أن تكون بين قـواد الجيش و نبلاء البـلاد حتى تأتيه بأخبارهم وتكون نائباعنه بينهم ، وبلغه أيضا أنك تجتمع بلذريق وأذنابه وتتصل بجماعات سرية ، فمن أجل ذلك يريد تغيير نظام وراثة العرش ، لتئول ولاية العهد عند اعتـــــلاء الأمير غيطشه للملك إلى ابنه الأكبرثم تكون فى الابن الأكبر على الدوام وبذلك تحرم ولاية العهد إذا انجب اخوك .

جوليان : وهل يوافقه على ذلك أصحاب الاقطاعيات والنبلاء ؟.

سامون : هـذا امر لا يعنيهم ولا يحبون التدخل فيـه ، ولا يغرنك أحد منهم ، فقد استشار الملك كبارهم ووافقوه على ذلك .

جوليان : وهل هذا الذى أهمك حتى تقابلنى فى مثل هذا الوقت لتزف إلىّ خبره ؟؟ إنى لا أعبأ بهذا ولا تهمنى ولاية الملك يوماً ما .

سامون : الأوفق أن تجتهد فى إرضاء والدك فقد يرجع عن هذا الأمر ولا يكون حتماً مقضياً ، فكر فيه ملياً .

جوليان : هل هذه مجرد فكرة استشارك فيها جلالة الملك أم هو أمر يريد إنفاده ؟

سامون : الحقيقة أنه أمرنى به فرجوته فى أن يرجئ إبرامه

اسبوعاً عسى أن تتمكن من إرضائه والعدول به عن رأيه .

جوليان : الآن أصبحت واثقاً أن هذا الأمر لا محيص عنه ، فهو يعطف على غيطشه من كل قلبـــه وأنا لا ألومه على هـذا الحب فغيطشه حـرى به ، ولا أظن أن هنـاك فائدة من ارجائه ، لأنه يريد أن يقدم هدية لمرسيا وهنـاءة لغيطشه وأولاده ، ولا تفكر ياسامون أنى سأعيش حتى يتولى غيطشة الملك ثم يموت ويئول إلىّ الملك من بعده ، إن هذا ياسامون أمل طويل ، وأنا أحب غيطشة من أعماق نفسى ، وأتمنى له عمـراً طويلاً ، وأن أعمل إلى جانبه حتى يبلغ ذروة المجـد ... واعلم أن مجد الانسان ليس قاصراً على اعتلاء العرش ، بل المجد فى قوة العزيمة وبعـد الهمة وجلائل الأعمال ، فاعمل برغبة الملك ولا تظن أن ارجاءك هـذا الأمر يرضينى ، فانى اكره مساءة عاطفته وأمانيـه ، وأكون شاكراً لك اذا بلغتـه مسرتى من اتمامـه حتى لا يكون فى ريبة منه .

سامون : ياسمو الأمـــير ، أحب ألاّ تقطـع فى الأمر برغم ما بينت وافصحت من حبـك وولائك لولى العهـد وايثارك لولده على نفسك ، وأراك تقطـع أملك من الأيام مع أن أمر الغد بيـد علام الغيوب ، وان ما زهدت فيـه اليوم قد تندم على يأسك منه بعد قليل ، حيث لا ينفع النـدم ، وإذ ذاك تقـول لو رضيت ... لو فعلت ... لو أصغت إلى النـاصح ... أو قـــد تلومنى ، وما أفــرط فى مودتك

والاخلاص إليك وإلى بيتك الكريم !

جوليان : مع شكرى الجزيل أرجو منك أن تهون على نفسك فالأمر قد حزب ولات حين مناص ، وأعتقد أن الرجوع عنه أمر لا يرضى الملك ويثقل عليه ، أما وقد شاع فان المشورة بضده تفسده ، وتنتهى بما لا تحمد به عند الملك ، بعد أن تفتح على انفسنا ما يوعز لصنائع الناقمين على اسرتنا أن هناك ثغرة انقسام يلجون منها إلينا ، فتقع القطيعة بينى وبين أبى وأخى ، ولو أنفذناه ما خسرنا شيئاً ، ولا تثريب عليك إن أمضيته غداة غد غير هياب ولا وجل .

سامون : يا سمو الأمير ، بعد الذى سمعته من سموك لا أرى لى حقاً فى مراجعتك ، ولا يصح منى أن أتلكأ فى إنفاذ رغبة الملك ، وإن شعورى نحو سموكم الآن لهو شعور اجــــلال واعظام لسمو مقاصدك واخلاصك لولى العهد ولرابطة الملك المقدسة ، وأعتقد اعتقاداً يملأ قلبى سروراً ونفسى فخاراً أنه لن ينال خصوم بيت الملك منه منالاً بعد الآن ، وإلى ذلك قد استراحت نفسى وقد أديت واجبى ، وسأمثل بين جلالة الملك لأبشره بما قبلته ، وإنى لجد حريص على أن أبلغه عنك ما يرضيه ويرضيك وما يزيل من نفسه أثر ما يبلغه عنك ويشكوه منك وأدلى إليه بما عرفته .

جوليان : أشكرك من كل قلبى .

« ثم ينصرف سامون » ويقول فى نفسه لقد انتصرت على هذا

الغر المفتون ولقد عرّضت له بأوامر أبيه ولكنه لم يلتفت إليها ولم يعرها اهتماماً ، وهو يظن أنه ذكى لبق وما هو كذلك ، ولو وافق الملك على إصدار هـذا القرار نهائياً لصار أمر الخلاص منـه سهلاً ، ثم يذهب للملك ويقابله .

سامون : يا جلالة الملك لقـد تمكنت من مقابلة الأمير جوليان مساء البارحة وبلغته أوامر جلالتكم فرفض الانضمام إلى الجيش ولم يعبأ بالتهم التى تتهمونه بها جلالتـكم من التودد للذريق وأعوانه ولا أحسبه إلا شريكاً فى التآمر على أخيـه وأن الوسيطة فى ذلك لندل التى يخلص لها وتخلص له ، برغم أننا حلنا بينه وبينها بعدم الموافقة على زواجه منها ، وكل ما أمكنه أن يقول رداً على هـذه التهم ، أنه يحب أخاه غيطشة ويخلص له كل الاخلاص ، وأنه من جهة ثانية لا يرضى أن يكون ولى عهده ولا تهمـه ولاية الملك يوماً ما ، وقد حاولت التأثير عليـه وأفهمته أنى أرجو من جلالتكم تأجيل هذا القرار حتى يعمل على ارضائكم بانضمامه إلى الجيش وترك لذريق وأذنابه ، وألحفت عليـه فى الرجاء ونصحت له كل النصح فلم يقبل منى وأجابنى بقـوله ، اذهب وبشر جـلالة الملك بأنى قبلت فى صورة من التهكم والازدراء ... فلم أر من الصواب أن أظهر له حنقى على مسلكه هذا حتى لا يجرؤ على الظهور به علانية وأفهمته أنى مسرور من اخلاصه لأخيه وأنى سأبلغ جلالتكم صدق اخلاصـه وأنه سوف يقلع عن مخالطـة الغانيات من بنات

الأشراف خصوصاً بعد زواجه ، لعله يكبت عداوته فى قلبه ولا يكشف عنها علانية فيعجل بالفتنة .

الملك : إن هذا أمير شرير وأخاف أن أتهم شر فى إذا أنا تنصلت من الحاقه بى ، ولابد من ابرام هذا الأمر اليوم .

سامون : أرجو أن يقدر جلالة الملك الغيرة التى تحصل فى نفوس الاخوة ، خصوصاً على منصب خطير مثل هذا المنصب المغرى فلابد من التنافس عليه ، والتاريخ حافل بأمثال ذلك ، وجوليان كما أشار لى يزعم انه أكثر ذكاءً وحذقاً من ولى العهد ، ويرى أنه أحق به منه لولا أنه يؤثره على نفسه ، وكان يرجو من جلالتكم ثمناً لقبول زواجه من نورا باصدار الأمر لصالحه ضد الأمير غيطشة .

الملك : كفى ، كفى ، إنه ولد عاق ولسوف يلقى جزاءه .

سامون : يا جلالة الملك لا تيأس من صلاح حاله ، وأعاهد جلالتكم على أنى سأروضه حتى ينضم إلى الجيش فاذا قبل أمكنه الابتعاد عن لندل وعن الاجتماع بأذناب لذريق فامهلنى .

الملك : هل اخبرته بأمرى ، وما هو جوابه ؟

سامون : لم يعطنى جواباً مع أنى رجوت منه إطاعة أوامر جلالتكم ورغبتكم فى انضمامه إلى الجيش حتى لا تصدر قرار حرمانه ، وكل مابلغنى أنه لا يود إرجاء إصدار هذا القرار ، ويجب علىّ أن أحيط جلالتكم علماً بأنه استعلم منى .. هل يوافق النبلاء واصحاب الاقطاع

على هذا الأمر ... ولا أرى إصراره على التعجيل إلا بايعاز من لذريق واذنابه حتى يدخلوا فى أدوار الفتنة من طريقه .

الملك : كفى ، كفى ، لا أحب أن أسمع كلاماً بعد هذا ، ولا أحب أن أرى هذا الولد الشرير العاق الذى ينتصر لنفسه بأعداء أبيه .

ثم يقوم الملك منفعلاً ويوقع الأمر ويلقيه لسامون ثم يقول : (نفذه فوراً واعذرنى إذ لا أستطيع الكلام بعد الآن) ثم ينصرف إلى حرمه الخاص ، وانصرف سامون وتكاد نفسه تطير فرحاً بنجاح دسائسه .

نرجع بحديثنا نحو جوليان من وقت أن خرج سامون من حضرته فما أن خرج حتى توالت على نفسه هواجس الرجل الموتور الذى لا يحسن الحيلة أمام غريمه ، ولا يقوى على رد كيده ودسائسه ، ويقول : (إن هذا الوزير يظن أنى من البلاهة بحيث أفهم أن هذا الأمر معلق على قبولى ، ولم يدر أنه قد وصلت إلىّ اخبار مؤامرته هذه من اسبوعين وقد اعددت لها عدتها ، يالله من جاهل غادر لئيم مخادع . . يذكر لى وفاءه وإخلاصه وهو ألدّ أعدائى . يعرف عن غيطشة ضعفه وبلاهته ، ويعلم أن الملك على حافة القبر ويتمنى ذلك اليوم الذى يتولى فيه غيطشة الملك فيستولى على عقله حتى يكون هو صاحب الكلمة والنفوذ والسلطان عنده ، ولا يجد أمامه حجر عثرة فى سبيل هذه الأمنية إلا وجودى إلى جانبه أرد كيده إلى نحره ، فيريد ان يقصينى

عن دار الملك ليخلو له الجو فيبيض ويصفر ، تباً لك يا سامون .. لو لا أن الملك يثق بك ما استطعت أن تمثل هذه المواقف الخطيرة ، مع أنك أخطر رجل يخشى شره ، ولا تؤتمن على اسرار الدولة ولا إخلاص عندك للملك ولا لأبنائه ، إن خدعك ظاهرى وأعجبك بيانى ، فيما رأيت وسمعت منى ، فكلانا يسخر من صاحبه .

ولكن جوليان فى الحقيقة كان يعزى نفسه لانه خرج من المقابلة بصفقة المغبون ، وذهب إلى حجرة مكتبه وجلس وحده كئيباً حزيناً من الهم الذى اعتراه ، وظل جاثياً على مكتبه حتى الصباح ، كأن الوحدة كفيلة بانقاذه مما يعانيه ، وذهبت لندل تكشف أمره حتى علمت أنه لا زال فى مكتبه ، فاستأذنت ثم دخلت عليه باكية تقول (أيها الأمير لمَ لم تسأل عن خادمتك المخلصة لندل ثم تركع باكية . هل سلوتنى الى غيرى فتفكر فيها ولا تفكر فىّ وأنا التى اعطيتك قلبى وملكتك نفسى وحياتى ورضيت أن أكون خادمة لك وللأميرة زوجك واصبحت ولا غبطة لى إلاّ فى سؤالك عنى ، ولقد أحزننى وحزّ فى نفسى وزاد فى مصابي وبلواى ما شاع فى القصر من أن مرسوماً وقع الساعة بحرمانك من ولاية العهد ، يا جوليان تزوجتنى فى الخفاء مع أنى اخت لدريق العظيم وقبلت بعد ذلك زواجك من نورا ، واهدرت دمى وحياتى وغاية مشاعرى واحساسى طواعية واختياراً ، كل ذلك فى سبيل ألاّ تحرم من حقك هذا الذى اصبتُ به واصبتَ به اليوم ... يا جوليان لا تتركنى

ولا تحدث نفسك أن تسلونى بعد ذلك كله ، فقد كدت أذوب من الحب فلا أرى إلا الفناء فيه ، فلا تعجزنى وتتركنى أسمع كلام الشيطان فى حبك الذى أغار عليه .

جوليان : ما هذا الذى أراه فى نفسك يا لندل ، أأصابك شىء فى رأسك أم مسك شيطان أثيم ، ولمَ تحدثيننى اليوم عن شىء أنا أعلمه فتذكريننى بحبك وبتضحيك وبشرف نسبك وأنك أخت لذريق العظيم ، وأنك زوجتى فى الخفاء ، ولمَ أراك واجمة ، أتظنيننى قليل الشجاعة ، قليل الوفاء .

لندل : الجنين يتحرك فى أحشائى ، وأنا أخاف الفضيحة وأخشى العار ، وفوق هذا وذاك أرى سامون قد انتصر علىّ وعليك وحرمنى منك وحرمك من ولاية العهد .

جوليان : أتريدين إنتحاراً يا لندل ؟ لا تخافى شيئاً ولا تحزنى فان وضعت فسأعترف بولدك برغم كل ما يقال وبرغم الكنيسة ، فأنا لا أفهم أن يتزوج الانسان مرغماً من امرأة لا يحبها ويحرم نفسه ممن أحب ، أو أن يعاشرها معاشرة الأخساء الساقطين ، إنى لأعجب يا لندل كيف لا يعترف الانسان بدمه الذكى الذى سكبه فى أحب وعاء لديه وفى أسعد ساعاته ، خير للرجل يا لندل ألاّ يفعل ذلك من أن يخدع أو يخاتل أو يزنى مرة واحدة فيلعب بأعراض الفتيات ليحتفظ بزوجة واحدة لا يميل إليها كل الميل ، تزوجها تحت ضغط الملك وعنف

التقاليد ... ولم يوجه أحدنا قلبه وعاطفته وحبه لأولاده من زوجة مثل هذه ويضمهم إلى اسمه وشرفه ثم يهوى بالآخرين إلى العار وإلى العالم المجهول ... إنى أسائل هؤلاء أهذه عاطفة دم أم عاطفة تربية ، فان كانت عاطفة دم فانها لأولاده جميعاً من نورا ومنك وإن كانت عاطفة تربية فلم أخص بها أولاد نورا دون ولدك ودون أولاد الشعب ، والأمة كلها حينئذ أولى بتربيتى وحنانى ، ولها حق علىّ يجعلنى أندمج فيها بعصارة نفسى وفيها الولد البائس واليتيم ... يا لندل سأثور على كل هذه التقاليد ولمَ لا أثور وممن أخاف ؟ أأخاف الكنيسة أم أخاف الملك الذى حرمني ولاية العهد ولم يبق لهم أن يحرمونى شيئاً بعدها .

لم أكن غادراً عندما أعطيتك وثيقة زواجى منك عن يد القسيس وأنت تقولين لا تعترف بها الكنيسة ولا ترضاها التقاليد ، فذنبى وذنبك يقع على رأسك فأنت التى دفعتنى فى هــــذا المأزق الخطر ، وجعلتنى أخضع ولا أقاوم النذل سامون قبل أن تكبر أظافره ويشتد نابه ، وإن كان يسرك الآن إعلان زواجى منك فسأعلنه .

لندل : تمهل أيها الأمير ، فلا فائدة من إعلانه الآن ، ولو كنت شريفة شرفاً لا يتقول فيه الناس وأشعر بذلك من ضميرى لأجبتك إلى طلبك هذا ، ولكنى أحس أن ضميرى مات يوم أن قبلت هذا الزواج ، ذلك لأني كنت لا أطيق البعد عنك وأخشى عدم رضاك ، فأعدمت ضميرى وهويت به تحت قدميك فلا تسألني بعـد

ذلك شيئاً ، حسبي أني صادقة فى حبي نخـذ مني ما شئت . واقبرني إن شئت ، واجعـل مني سلاحاً تشهره فى وجـه من شئت ، فان مت فشهيدة هـواك ، وإن عشت فما أجرى الذى أطلبـه إلاّ دمية لا تمـل اللعب بهـا والاحتفاظ بصداقتهـا ، فان مللتها فلا تبق عليهـا ، ولا تجعل مني إحساساً يتعذب فى هواك

لعينيك فى قلبي عليك شجون   وبين ضلوعي للشجـون فنون
نصيبي من الدنيـا هـواك فانه   غـذائي ولكني عليـه ضنين

جوليان : لم أرك حبيبة ماجنة كاليوم يا لندل ، وأرى أعصابك مرهقـة تعبة من إجهاد فكرى لا يصح أن يحيط بنفسك ، ويجب أن تحافظي على هدوء أعصابك حتي تملكي رشدك على الدوام ، وفى الليلة القادمة ستغني شالويا فى حفل فى بهو القصر ، وسأعد لك مكاناً منعزلاً فاحضرى لمقـابلتى لنذهب لسماعها معاً بعيدين عن أعين الرقباء ، ولا تجهدى نفسك مثل هـذا الاجهاد ، وفى القريب سأعطي سامون درساً قاسياً حتى لا يعود للعب بالنار جزاء كيده ودسه .

لنـدل : استحلفك بحبي لك ألاّ تعلن أمر زواجنـا فتقع على رأسينا المصـائب من كل وجهة ، وأنا راضية أن أكون ضحيـة حبك وشهيدة هواك ، ولا تعذب نفسك من اجلى فأنت فى حل من كل عهـد ، وكل ما يهمني أنه إذا جاءني المخاض فلا تتركني وخـذ ثمرتنـا لنفسك واعهد بها لمن شئت حتى تهدأ أمورنا ونرى لنا طريقا قبـل أن

يفتضح الأمر ويجردونك أيضا من حقوق الدين والنسك ويعتبرونك زنديقا ، كما يعتبرونني بغيا أغريتك واغتصبت حق زوجتك البريئة الطاهرة وهى بنت خالى ورفيقتي التى رافقتها طفلة وصاحبتها فتاة وسرت معها جنبا إلى جنب ، ويقولون أني غدرت بها ولم اعلن لها علاقتى بك ، وهناك الطامة الكبرى إذ لم استشر أخى ، وقد أخفيت عليه كل أمرى . يا جوليان ، إني لا أحب أن أرى لى ولداً يكون سبب الفضيحة ، وسأبقى وفية لهذا الحب غير نادمة على شيء ما دمت تحت عطفك وبين حنايا ضلوعك .

جوليان : مادمت يالندل تحبين إخفاء هذا الزواج فسأخفيه حتى تأمريني باظهاره على ألاّ أراك ثائرة النفس ، وأما من جهة طفلك فعند ظهوره فانى قمين باخفائه ليلة ميلاده ، وسأعهد به إلى من لا يفرط فيه فاطمئنى ، وكل ما أرجوه منك الآن الحضور فى الموعد لسماع شالويا لتكونى مسرورة وحتى يتغير هذا الجو الذى يحيط بأفكارك ويملك عليك نفسك ، وحتى تهدأ أعصابك فتسرى عن نفسى .

شالويا المغنية

وفى المساء من ليلة شالويا جلست لندل فى مكان منعزل عن أعين الناظرين وجلس إليها جوليان ، يسمعان ويتناجيان .

جوليان : لمَ أراك يا لندل مهمومة مفكرة ؟

لنـدل : كلا يا جوليان ، من أحست أنها إلى جانبك نسيت نفسها وماضيها وحاضرها ومستقبلها .

جوليان : أبصرى هؤلاء القوم قد ضاع وقارهم وخلصوا من ربقة التقاليد أمام شالويا فكأنهم يعيشون فى عالم الأحلام ، أليست لهم آلام مثل آلامنا ؟

لنـدل : إن شالويا ساحرة ، ولكنى فى حضرتك أسحر من نظرتك فكأنى فى واد غير واديها .

جوليان : إن شالويا تكاد بغنائها وترنيمها تذيب قلبى وتقطع أوصال نفسى ، فترنيمها يقع على أعصابى كموجات الأثير التى تأخذنا إلى العالم الثانى ، ولها توقيع يوشك من فرط تأثيره على وجدانى أن ينسينى موقفى هذا فلا أدرى أهو نشوة اعترتنى ، أم هزة أيقظتنى ، أم سحر حلال ملكنى ، أم هى تبعث فىّ فكرة الآلام والأحزان .

لندل : أوهكذا يأخذ الغناء من ألباب الرجال ؟ إنى أغار ، سأتعلم الغناء فلا تطرب من غيرى .

جوليان : ولكن لا تنس أن الصوت هبة من هبات الله ، التعلم يصقله ولا يوجده ، ولمَ تغارين منها ، أأعطاها خالقها جمالاً مثل جمالك وصفاتا مثل صفاتك ؟ ألا تنظرين إلى دمامتها وقبح منظرها ؟

لنـدل : ولكن جمال صوتها يلبسها أمام أعين الرجال جمالا وسحراً يفوق كل جمال ؟ ألا ترى أنها عندما تغنى يكاد الرجال يذوبون

شوقاً إليها وهياماً بها ، وتتمثل أمامهم أنوثتها بديعة حاضرة حضور صوتها الرنان ونغماتها العذبة ، ألا ترى أنها تأخذ بالألباب وتمس القلوب ، وتلهب العواطف الجامدة ، وتكشف ستر الأسرار فتبين عن أخلاق المحبين وغرام العاشقين يا جوليان ... الصوت الجميل عود لا وتر له إلا نياط القلوب .

جوليان : حقاً يالندل إن الصوت العذب الشجي له سلطان يحرك الجامد من قلوب الانسان ، بل إنه ليثير عواطف الطيور والحيوان ، إذا غنت شالويا فكأنما تغرد معها الطيور وتنبعث من أوكارها ، أهي ريحانة من السماء يهب شذاها على كوامن القلوب وأسرار النفوس فتستنطقها ، فهي إن غنت أنشودة السعادة والفرح طربت النفوس واهتزت الأرواح كأنها لا تقاسي في هذه الحياة ما تقاسيه من ألم ولا تنتظر بعد هماً ولا نكداً ، وإن غنت أغنية الحب مالت الأجساد وتأودت الأعطاف ، كأنه لم يبق أمام أعين الناس من ناظرين وارتفع نقاب الحياء ، وهي إن دعت إلى الحرب حركت الشجاعة في نفوس الخاملين ، فزهدوا في الحياة وجاشت في نفوسهم عواطف الفناء في سبيل المجد ، وإن ذكرت الأشجان والأحزان ذهبت بالنفس إلى حيث يذهب صوتها ، فهامت النفوس في القبور تسأل سكانها ما الذي دهاهم من دنياهم ، فوجف القلب وفاضت العين بالدمع السخي ... آمنت بالصوت يالندل ، أنه لغة من وحي السماء

تغنى بها الأرواح فتثمل بحلاوتها الاجساد ، وإن المعانى الواضحة ، المصوغة فى الألفاظ الجزلة ، الذاهبة فى الأغانى العذبة المرسلة مع الصوت الشجى ، تثبت فى النفس أكثر مما يثبت فيها من أقوال الكتاب والخطباء والحكماء ، فليت الناس يتعلمون بالأغاني التعاليم النافعة وليتهم يوجهونها ناحية الخلود الذى ينزل الصوت الرخيم من سمائه ، وينزهونها عن الأوشاب التى تحولها من آلة ملائكية تصفو بها النفس إلى آلة شيطانية تدعو إلى الفساد ... اسمعى يا لندل كأنها الآن تتحدث عن نفسينا ، وتذكر آلامنا وجروح قلبينا .

لندل : أيها الأمير ، إنى إن انتظرت بعد الآن فسوف لا أملك نفسى ، لقد هزتنى هزاً عنيفاً ولعبت بلبى وكأنها تريد أن تزهق روحى ، إنى أحس أن قلبي يغور بين أضالعى ، إن صوتها يفعل بى فعل المخدر ، فكانى فى أرجوحة ، أحس نفسى تهبط معها ثم تعلو ، أسكرتنى سكراً عميقاً ، إما أن تغير اللحن وإلا فأذن لى فى أن أقوم قبل أن أسقط من مقامى .

يقوم جوليان ويذهب إلى المغنية ويطلب إليها أن تغنى إحدى هاتين القطعتين (كلانا ولدا حبيبين) أو (انهضى يا أسبانيا فابلغى نجم السماء ، وإنشرى الضوء مع النيرين على أرجاء العالمين) .

فغنت شالويا إنهضى يا أسبانيا .

جوليان : بخ بخ إن شالويا قد إختارت الأغنية التى أحبها .

لندل : أتحب هذه الأغنية أكثر من كلانا ولدا حبيبين .

جوليان : وكيف لا وأسبانيا حبيبتى الأولى وبها ولدت وترعرعت ورفلت فى حلل النعيم والعيش السعيد ، وحبتنى بهذا الجاه العريض ، وطالما كانت منيعة مهيبة كنت عزيزاً هادئاً ، إنى أفكر الآن فى أن أنضم إلى الجيش لأن الوقت أصبح يستحق التضحية والبلاد على أبواب فتنة هائلة .

لندل : أو تنضم إلى الجيش وتترك حبيبتك ؟

جوليان : الواجب يقضى علىّ الآن ألا أفكر فيك وأن انصرف إلى مجد الوطن وعليك أن تساعدينى على ذلك .

لندل : كم كنت أود أن انضم إلى الجيش معك ، ولم لا تحارب المرأة مع الرجل جنبا إلى جنب ؟

جوليان : كلا ، لا تحارب المرأة مع الرجل إلا فى الدولة الوشيكة الزوال ، لأن المحارب معرض للأسر والسبي وكيف يطيق الحر أن تسبى حرائره قبل فنائه وفناء رجاله ، وكيف يا لندل نأخذ النساء لتلاعب بجمالهن جند الأعداء فيظمئون إليهن ، ويهرقون من أجلهن وبين أيديهن الدماء ، وهم فى الحرب كالوحوش الكاسرة والأسد المستنفرة ، والمرأة فى الجيش الذى تكون به كالخمر فى رأس الرجل تغيبه عن رشده وتلهيه عن واجبه ، وتجعل الجندى إلى جانبها غافلاً عن عدوه غارقاً فى هواها يلاعب عواطفها ، يا لندل المراة للولد والبيت

والرجل للعمل والحـرب ، فان اختلط الأمر بينهما اختلفت الحياة عن سنتها الطبيعية ، وأوشكت الامم أن تزول .

لندل : وهـــلا تذهب مثيلات (شالويا) إلى ميادين الحرب فتغنيهم ، فهي بمثل أنشودتها هذه تستفز همم الرجال فيستسيغون الحرب والنزال ، إني أعتقد أنها لو غنت هـذه الاغنية وقت الملحمة لجعلت من الجبان شجاعاً ومن الرعديد صنديداً .

جوليان : لاشيء من هـذا ينفع وقت الملحمة ولكن أغانيها تثبت فى افئدتهم من الآن فيرتلونها ترتيلا عملياً وقت اللقاء والنزال ، إذ لا يكون إغراء المرأة قائما ، إن المرأة ما دخلت فى جد إلا حولته لهواً ولعباً ، المرأة زاد ومتاع والرجال شرهون جياع ، فأجمل بها أن تبقى لزينتها وبيتها من أن تشترك فى أى عمل من أعمال الرجال .

لندل : وإذا كانت المرأة لا تطيق صبراً على بعد حبيبها ، ولا تود أن تبقى لحظة بغيره أما أحرى بها أن تكون قريبة منـــه تحيا بحياته وتفنى بفنائه ، إنى معذبة فى حبك ياجوليان .

جوليان : على كل حـال لا أظن أن حرباً تقع قبـل خمسة أشهر وأرجو أن تخمد ثورة هؤلاء الذين يتربصون للملك ، فأنى أكره الحروب الأهلية وأمقتها ، إذ كيف يحارب الأسبانى أخاه الأسبانى ، وفيم الشجاعة وكلنا أسبان ، لولا إن إخماد الفتن واجب يدعو إليه نظام الجماعة ووحدة الأمة ومانع من سريان تيارات الأفكار الخاطئة حتى

تكون الأمة فى حصن من شماتة الأعداء واستضعافهم إياها، وتربصهم بها وهى على هذه الحال من الفرقة والانقسام.

ثم تركا بهو القصر وذهبا إلى جناح جوليان الخاص وانفردا فى احدى حجراته يتحادثان.

لندل : ان كل ما يهمنى أن تبقى إلى جانبى حتى يحين الوضع لتفى بما كان من عهدك، وبعد ذلك يكون ما يكون، وأرى ياجوليان أن سامون لم ينتصر عليك فى حبك ومنصبك فحسب، بل قد إنتصر عليك حتى فى أفكارك وشعورك، فأصبحت ترى ما يراه، إذ كيف تتصور أن البلاد مقبلة على فتنة شعواء، ولم تكن هذه التصورات تخطر ببالك من قبل، وهذه الأفكار هى بعينها التى أقنع الملك بها وكنت تهزأ منه فيها. فأرجو أن تكثر اتصالك بأخى لندريق وأنا واثقة من اخلاصه الأكيد لبيتكم ولشخصك على الأخص، ولا تغيب عنك فطنته وذكاؤه، فان توصل إلى مقابلة الملك فهو الوحيد الذى يمكنه اقناعه بفساد هذه الآراء، فان الفتنة قد تشتعل من أنفاس الذين يحاربونها ويريدون القضاء عليها أكثر مما تشتعل من أعمال القائمين بها.

جوليان : وكيف يتوصل لمقابلة الملك الآن، وسامون يرصد الطريق وجعل قلب الملك يغلى منه كالمرجل وأحاطه بجواسيسه، وهو الذى جعل مقابلتى لوالدى الملك مستحيلة إلا بحضوره حتى يهيئ الجو الذى يريده، وأنا أقرب للملك من لندريق، لا يتمكن أى انسان

الآن من مقابلة الملك إلا بأذن سامون وكل مقابلة عن طريق سامون وتحت سمعه تضر أكثر مما تنفع .

لندل : على كل حال أسرع بالاتصال بلدريق فانه سندك الوحيد وأقوى نصير لك على سامون .

جوليان : أنت تعلمين ثقتى فى لدريق وتقديرى لمواهبه واخلاصه ، وعظيم نفوذه وسعة حيلته ، وطبعاً يهمنى الآن الاتصال به قبل كل شئ آخر ، وأما من جهة عدم انضمامى إلى الجيش قبل وضعك فاطمئنى غاية الأطمئنان إلى أنى سأبقى إلى جوارك مهما كلفنى الأمر ، وكل الذى يهمنى أن تصونى نفسك من خواطر السوء فى مثل موقفنا الدقيق ، واعلمى أنى لا أحمل لك فى نفسى إلا كل احترام وحب وأنى أعانى لأجلك فوق ما تعانيه لأجلى ، فاذهبى إلى سريرك قريرة البال .

ثم ينصرف كل منهما إلى حجرة نومه .

وولى الجمع من حيث أتى وتكفل الليل بالناس فهجعوا ، وهو جاثم فوق البقاع والدور فجعلهم كسكان القبور ، ولكن لندل لا تذوق طعم الكرى ولا لذة الغمض ، ساهدة لا تتوقع من الأيام إلا شراً ، ولا يحوم فى خواطرها إلا أسوأ الظنون ، وجوليان فى مكانه أيضاً أرق يعض أصابع الندم والحسرة ، مع أنه وقت أن كان مع لندل كان يتظاهر بالثبات وعدم الاهتمام حتى يلطف ثورة نفسها ويروح عنها ،

وكلما فكر فى هذا الأمر الذى قضى بحرمانه من ولاية العهد بعد أخيه وانتقالها إلى من ينجبه، مات ضميره، وأصبح يرى أنه لم يعد للفضيلة معنى يقف دون انتقامه من الذين سولت لهم أنفسهم الاقدام على هذا الأمر ولا سيما سامون الذى حاربه بأخس الدسائس، ولو هوى بنفسه إلى حظيرة الأشرار المجرمين والقتله السفاحين .

وظل جوليان ولندل فى معترك من الأفكار وشتى الهواجس وقضوا على ذلك أياما توقعا لما يتمخض عنه المستقبل من حوادث .

الفصل الرابع

الميـــــلاد

كان من بين ما شغل جوليان فى الايام الماضية خطة أخفاء الطفل ليلة ميلاده، وأخيراً هداه التفكير إلى صديق حميم من أصدقائه يثق به وله يد عليه، وكان الصديق هو برلى التاجر ببرشلونه .

بــــــرلى

كان برلى رجلا فى مقتبل العمر يبلغ الخامسة والثلاثين ذا ثروة لا بأس بها جمعها من اجتهاده وكده إذ أنه ولد يتيما فقيرا، فاشتغل عاملا، ثم جمع من كسب يده دراهم معدودة اتجر بها حتى نمت وزادت مع الايام، ذلك لأنه كان حريصا أشد الحرص لا يصرف دانقا فى غير

وجهه ، ويقتر على نفسه ، فلا يعطيها حظها من الشهوات ، وكان يجوب البلاد للاتجار حالا مرتحلا ، طائفا بالمدن والثغور ، ينقل متاجره من بلد إلى بلد ، ومن مملكة إلى غيرها تبعا لحالة الأسواق ، ولم يكن له من وقت يضيعه فى غير هذا الشأن ، غير ملتفت إلى مباهج الدنيا ونعيمها ، وأصبحت متعته من الحياة جمع المال ، وكان له أصدقاء عديدون لا يحبونه لذاته ولكن من أجل ماله ، وكان يجوب البلاد مع حب استطلاع لمعرفة أخبارها حتى صار مصدراً للاخبار المهمة ، ولا حظ له فيها إلا أن يحيط الأمير جوليان علماً بها ، إذ كان له نعم الصديق ونعم النصير لا تقف أمام برلى عقبة إلا ذللها له ، وكان مرهوب الجانب من الجباة بسبب هذه الصداقة ، فلا يصادرون عروض تجارته ، ولا يجبون منه عليها إلا النذر اليسير ، وفوق ذلك فهو يحب الأمير جوليان لأنه هو الذى شجعه لأول عهده بالتجارة إذ كان لا يحتاج مالا إلا أقرضه إياه ، ولا يسأله إداءه فى أى وقت ، إن شاء أداه وإن شاء حبسه على نفسه وتجارته ، . فمن أجل ذلك فكر جوليان فى أن يعهد إليه بطفله لأنه يعتقد أنه لا ينسى هذه اليد وهذا الصنيع مدى الحياة ، ولطالما ألح برلى على الأمير جوليان أن يكلفه بخدمة عسى أن يقدر على رد بعض هذا الدين الذى طوق به عنقه ، ولكنه كان يراه غير محتاج إلى أية خدمة من خدماته سوى تسقط الأخبار والادلاء بها إليه إذا كان هناك أهمية لها فى الوقت الذى يستطيع .

ولما قرب ميعاد الوضع أعد جوليان عدته للسفر إلى برشلونه سرا حتى لا يعلم به أحد وسافر إليها ومع أن الرحلة كانت شاقة ومملة ، فانه كان مهموما هماً يزيد متاعب الطريق فاستهان بما لقيه من عذاب الجسد أمام عذاب النفس وكثرة الهم والفكر ، ووصل إلى برشلونة وهو قلق أشد القلق ألا يكون برلى ببرشلونه متغيبا في بعض أسفاره الكثيرة برغم أنه سأل عنه بعض الوافدين على طليطلة قبل قيامه فأخبروه بوجوده بها ، ولكن من كان في مثل ما أهمه يعتريه هذا القلق حتى لو كان من يطلبه على بعد يستطيع معه أن يناديه فيسمع ويجيب .

لم يكن جوليان على معرفة بمنزل برلى ولم يكن معتاداً أن يزور مثل هذه الزيارة المفاجئة مستخفيا فلما وصل إلى منزله سأل البواب ...

جوليان : أهذا هو منزل السيد برلى .

البواب : نعم .

جوليان : هل هو موجود الآن .

البواب : نعم .

جوليان : أرجو منك أن تخبره أن جوليان بالباب .

البواب : ومن أى النواحى جوليان .

جوليان : من طليطلة .

البواب : إن هذا وقت راحته فهل تسمح باخبارى عن غرضك

من هذه المقابلة الآن .

جوليان : أرجو أن تتكرم باخباره أن جوليان موجود بالباب ، وأما الغرض من مقابلتى فهذا شىء يعنينى ويعنيه .

البواب : ولكنه أمرنى أن أستعلم عن كل ذلك ، ولا أقلق راحته حتى أستوفى المعلومات الكافية .

جوليان : إذا أخبرته بوجودى فهذا يكفيه ، وإذا سألك فرضا عن هذه المعلومات فقل له إن الزائر رفض الادلاء بأى معلومات عن غرضه ، فان لم يقتنع فلك علىّ أن أنصرف فى الحال .

البواب : ولكنى ياسيدى لست مسئولا ولا ملزما إلا بتنفيذ أوامر سيدى فقط ، وهو الذى يدفع أجرى .

ضاق جوليان بالبواب ذرعا ، وتمنى لو لم يكن متلهفا على مقابلة برلى فيرجع حتى لا يتحمل صفاقة هذا البواب ، وهو الذى تنحنى له النبلاء وحكام الاقطاع ويومىء له خدم القصر إجلالا واحتراما ، ولكنه فى النهاية أمكنه أن يقنع البواب ببذل بعض المال .

جوليان : أرجو منك أن تخبره بوجودى ويكفينى منك ذلك .

ففعل المال فعله ولان البواب وذهب فوراً إلى سيده .

البواب : ياسيدى جوليان بالباب يطلب مقابلتكم .

برلى : ومن جوليان .

البواب : قال لى قل له جوليان فقط .

برلى : ومن أى البلاد جوليان هذا .

البواب : من طليطلة .

برلى : وماذا يطلب ؟

البواب : ليس من هؤلاء التجار ياسيدى الذين أعرفهم وأظنه يعرفكم شخصيا ، وطلب الىّ المقابلة وأن أخبرك بوجوده فقط ، ولم يقبل أن يعلمنى بشئ .

برلى : معارفى يطلبون مقابلتى فى أوقات خاصة يعرفونها جيداً ، وليس فى مثل هذا الوقت ويعلموننى بها قبل حضورهم ، ولا أعرف بهذا الاسم إلى الأمير العظيم جوليان وحقيقة هو من طليطلة ، ولكن من المستحيل أن يكون هو وإلا كانت البلد كلها فى استقباله ورفعت الاعلام ترحيبا به ولا أظن أنه يسمح بهذه الزيارة ويقف على بابنا في مثل هذا الوقت ، سله بلطف أن يعطيك بطاقته وإلا فأرجع الىّ لأعود معك واستطلع من هذا الذى يطلبنى في مثل هذا الوقت .

فذهب البواب إلى الباب في مشية متئدة غير مكترث بالواقف مع أن الأمير كان يظن أنه عما قليل سيرى برلى مسرعا إلى ملاقاته مرحبا به .

البواب : هل لدى سيدى بطاقة ؟

جوليان : (ساخطا) وإذا لم تكن معى بطاقة الآن ؟

البواب : تؤأنسنى قليلا ثم تنصرف .

جوليان : ألم تقل له اننى من طليطله .

البواب : (يقهقـه) لو كنت أجبتني على أسئلتى واستعـلاماتى لوفرت على نفسك كل هذا .

جوليان : هل أخبرته أنى جوليان وأنى وقف بالباب ؟

البواب : نعم أخبرته أنك من طليطلة وأنك جوليان ، ألم يكن هذا كل مقصدك ؟

جوليان : ألم يعرفنى ؟

البواب : وما هو ذنبى فى ذلك يا سيدى ، فانه قال أنه لا يعرف أحداً بهـذا الاسم فى طليطلة إلا الأمير جوليان نجل الملك ، وقال إنه من المستحيل أن يكون هو الطارق فى هـذا الوقت ، فان المدينة لو علمت بقدومه لهرعت لاستقباله ، وأقامت الأعلام ترحيباً بمقدمه .

أدرك جوليان موقفه وتبسم .

جوليان : أرجو أن تؤكد له أنى الأمير نفسه .

البواب : (مشدوهاً) سموك الأمير نفسه !

جوليان : نعم أنا هو بعينه .

البواب : لا مؤاخـذة يا سيـدى ، وسأنطلق إلى المدينـــــة لأخـبر أهلها بقـدومك ليقيموا الأعلام ترحيباً بمقـدمك إذا أقر لك سيدى بذلك .

جوليان : لا تخبر بذلك أحداً وإلا عرضت نفسك لخطر كبير ،

فأنا لا أحب هـذا ولا أحب أن يسمع بقدومى أحداً وإلا أطرت رأسك، واذهب من فورك وبلغ سيدك .

يخر البواب راكعاً ويقول سأذهب فوراً، ثم يسرع إلى سيده .

البواب : يا سيدى يؤكـد أنه الأمـــير جوليان بعينه : أى نعم هو بنفسه !

فيسرع برلى لملاقاة القادم وهو يقول إن كان ذلك حقاً فهذا أمر غريب وحادث عجيب ، ومن أنا حتى يقف ببابى الأمير جوليان ، ثم يفاجأ برؤية الأمير حقيقـة ببابه فيذهل من اللقـاء ولا يكاد يصدق بصره لو أنه قادر على اتهام عقـــله ، وينحنى أمامه ويحييـه مشدوهاً ويفسح له الطريق باحـترام وإجلال يليق بأمثاله من أمثال برلى ، ويقع البـواب خلفهما من الهلع الذى أصـابه إذ يرى أنه تلـكأ أمامه وأثقـل عليه ، وكلما ردد كلمتـه (وإلا عرضت نفسك لخطر كـبير وأطـرت رأسك) وكلما فـكر فى أنه أخذ منه مالاً ثمنـاً لرسالة المقابلة أحس أن روحه كادت تخـرج من فمه ، مما حـل به من الرعب والبلوى ... تقدم برلى أمام الأمير حتى أوصـله إلى حجرة الجلوس وقـد أعذره الموقف وما يبدو عليه من علات البشر والفرح بلقاء الأمير عن التلفظ بعبارات الترحيب إلى أن جلسا .

برلى : إنى للآن لا أصدق أن الأمير فى منزلى ، وأنى لى بهذا الشرف العظيم ، فمعذرة لما حصل فى استقبال سموكم .

جوليان : إنى لم أخطر أحداً لأنى لا أحب أن يعلم بقدومى إلى برشلونة إنسان ولم أصحب أحداً حتى أعود وتبقى هذه الزيارة فى طى الكتمان ، فأعتذر إليك يا برلى إذ لم أخطرك بقدومى .

برلى : أرجو منك أن تكون فى غاية الاطمئنان يا صاحب السمو من هذه الناحية .

(يتناولان تحية برلى ، وبرلى مرتبك يود أن لو أدى التحية بما يناسب مقام الأمير) .

جوليان : إخبرنى بأخبارك يا برلى لأنى لا أود المقام طويلا ويهمنى أن أعود على عجل .

برلى : الأخبار التى لدى ليست مما ترضى ، فالجباة قد أرهقوا الأهالى بكثرة جباياتهم والفتن سائدة فى كل اقطاعية ، ويتحدثون أن تميس وتيودور وغرديق ولذريق تعاهدوا على مناهضة الملك والقيام بثورة ضده ، أو يتخلى عن سامون ، وكل الأخبار تحوم حول هذه المسائل . وفى الوقت الذى تتطلع البلاد إلى سموكم حتى تنقذها من الظلم الذى أحاق بها ، ويقدرون فيكم الأخلاق العالية والهمة والشجاعة ، يفاجئون بحرمانكم من حقوقكم الوراثية بولاية العهد ، وهذه أوجدت فى قلوبهم حفيظة على الأمير غيطشة وسامون ، لأنهم يظنون أن للأمير غيطشة ضلعاً فى هذه المؤامرة ، وهذه فتنة ثانية لا نود أن تكون ، ونحب أن يعالجها سمو الأمير بما عهدنا فيه من حكمة .

جوليان : ولكنى أعتقد أن غرديق وهو صهرى لا ينضم إلى هذا الحزب وهو صديق حميم لسامون على ما أظن .

برلى : إن غرديق من ألد أعداء سامون ، ولو أنه يهادنه ويوادعه لأن غرديق سياسى لا يستهان به ، وحرمانك من حقوقك فى عهد سامون من أكبر الأسباب التى تجعله له يمقته ويأتمرون به ، ولو لم يفاتحك فى ذلك .

جوليان : وهل من سياسة لذريق معاداة الملك ؟

برلى : لو أن لذريق رأى المسيح إلى جانب سامون لأنكر المسيح من أجله فلا اخلاصه الملك ولا لدينه يجعلانه بنجوة عن إتيان أسوأ الأعمال انتقاماً من عدوه الألد سامون ، ولذريق رجل مروءة وشهامة فى أسمى حدودهما إن صادق ، وعلى النقيض التام من ذلك إن عادى وانتقم ولو خربت الدنيا بأسرها

جوليان : وهل تظن أن هؤلاء من أنداد الملك حتى يأبه لهم وأنت ترى ما أعد الملك من عدة ، والجيش الآن على أهبة الاستعداد للتنكيل بمن تحدثه نفسه بالثورة والانتقاض وهل تتأثر البلاد بأمثال هؤلاء .

برلى : يا سمو الأمير هذا كلام صحيح إذا كان الشعب هادئاً مطمئناً يتمتع بخيرات البلاد الكثيرة ومحصولاتها الوفيرة ولكنه يرى نفسه الآن محروماً منها ، وتخرج من البلاد خيراتها بأبخس الأثمان فى

سبيل إشباع شهوة النبلاء من اقتناء الجواهر والنفائس والترف والنعيم وهو يشقى ويئن من الجوع ، فهو الآن يغلى كالمرجل مما يعانى من شدة عسف النبلاء وأصحاب الأقطاع وكثرة الجبايات ، ويرى الملك أصبح ضعيفاً مسناً ، ولا تنس اليهود وما لهم من الشأن فى مثل هذه المواقف وهم فى مقدمة الطوائف فى خلق الشعور وتركيزه وتوجيهه ، وهم أهل ذكاء وفطنة ، ولا يخلصون الآن للملك والكنيسة . ويبثون دعاياتهم السيئة ضدهما ، ويرهبون هذه الفرصة المواتية لآمالهم فى هدم أسبانيا ، التى تناصر المسيحية وتضطهد اليهود وهم يرون أن الكنيسة قد حرضت أتباعها على احتقارهم واحتقار دينهم ، فهم يشعرون الآن أنهم فى خطر شديد تحت اكناف مثل هذا الحكم الذى يخضع لأوامر الكنيسة فى جميع مظاهره ، ويجتهدون الآن فى إيقاظ الفتنة حتى تتحول البلاد إلى ثورة تقلبهـا رأساً على عقب وتأكل الأخضر واليابس ، ولا علاج لهذه الحال إلا إذا هاجروا من أسبانيا ، وهذا لا يحتمل حدوثه وهم أهل مال وثروة فى هذه البلاد ، وما دامت هجرتهم غير محتملة فالعلاج الوحيد معاملتهم بالحسنى .

جوليان : هوّن على نفسك يا برلى ، فقد أعددنا لكل هذه الأمور عدتها .

برلى : إن إخلاصى لسموكم وليتكم هو الذى أملى علىّ أن أعبر لسموكم بصراحة عما أشاهده من أحوال البلاد ولم أبالغ فى شىء

ذكرته ، فالشعب يشكو الظلم والاستبداد ويئن ويتوجع ولا يمكنه أن يصبر على هذه الحال .

جوليان : أشكرك يا برلى على صراحتك وإخلاصك ، ولكنى جئتك لأمر يهمنى وأرجو منك ألاّ يكون فيه مشقة عليك .

برلى : ياسمو الأمير أظنك تشعر أني أتمنى خدمتك حتى التضحية بنفسى وأنى رهن مشيئتك فأمر أيها السيد المطاع .

جوليان : إنى أعهد فيك هذا الوفاء وأثق برجولتك ومروءتك ولذلك اخترتك لمهمة لا أستطيع أن أكلف بها غيرك .

برلى : ستجدنى أول من يوفيها حقها للأمير فأمر بما تشتهى .

جوليان : إن ما أكلفك به الآن يا برلى أمر خطير جداً يجب أن يظل فى طى الكتمان الشديد ، وإلا عرضتنى لأشد المتاعب ، بل للفضيحة والعار .

برلى : ثق بى ياسيدى ثقتك بنفسك أو أكثر ولا تبال وكن مطمئنا .

جوليان : إن فى الأمر سراً سأطلعك عليه ، سيولد عما قريب طفل أو طفلة لا أدرى ، ويهمنى أن أخفى المولود كما أنه يهمنى المحافظة عليه ، ورعايته أتم رعاية ، ولم أرج فى هذه المهمة غيرك ولا أطمئن إلا إليك ، وقد رسمت خطتى حتى يتم الأمر كما أشتهى ولم يبق إلا قبولك لتحضر بعد سفرى مباشرة بعد أن تكون قد أعددت كل ما يلزمك

لهذا السفر الطويل من عدة ، سواء فى الذهاب إلى طليطلة أو العـودة منها ، وسيكون فى صحبتك الطفل ومرضعـه وهى امرأة جميلة آية فى الطهر والعفاف أثق فيها كما أثق فيك ، فهل تقبل أداء هـــذه المهمة وتعاهدنى على كتمانها ، وتحكم خطة رحلتك وعودتك حتى لا يعلم أحد بسر من أسرار هذا الأمر .

برلى : قبلت على العين والرأس وهـذا ما أتمناه من وقت طويل حتى أؤدى للأمير بعض ما طوق به عنقى من جميل ، وإنى مستعد أن أفديك بحياتى كلها فما هى إلا غرس يديك وكن مطمئناً تمام الاطمئنان .

جوليان : لا تستهن بما كلفتـك ، وحاذر وكن على تمام اليقظـة فالجواسيس فى كل مكان .

برلى : لا تبال بكل ذلك يا سمو الأمير ، فـكل هذا سهل ميسر لبرلى الذى تعرفه من قديم فلا حاجة لأن أعرفك بنفسى .

جوليان : إذن فأرجو منك أن تقبل منى عشرين الف درهم ترصدها فى تجارتك ، للانفاق منها على المولود وعلى مرضعه ، لأنهامن النبلاء ولها قصة طويلة ، ليس هـذا وقت الحديث عنها وأوصيك بها خيراً إذا حلت فى ضيافتك .

برلى : أرجو من الأمير أن يعفيني من قبول هـــذا المبلغ فأنا مدين لسموكم بأكثر منه .

جوليان : معنى ذلك أنك تريد أن أفهـم أنك ترفض هـــذا

التكاليف ، وأنه يساورك بعض المخاوف من الاقدام عليه .

برلى : كلا فانى مدين لسموكم بأكثر من هذا المبلغ فلا أقل من أؤدى هذا الدين منجما أصرفه على ممر السنين .

جوليان : إذن أنت ترفض ما رجوته منك .

برلى : إذا كان هذا هو الذى يرضيك فلا أتأخر عن مرضاتك .

(ثم يأخذ المبلغ وقلبه يضحك فى صدره ولو أنه يتصنع الظهور بضد ذلك) .

جوليان : إذن سأنتظر قدومك إلى طليطلة بعد سفرى بأسبوع على الأكثر ، فانجز الآن ما يهمك حتى تكون على أهمية السفر .

جوليان : وفى أى مكان ترى أن أقابلك فيه .

ثم اتفقا على المكان وبات جوليات ليلته وسافر فى الصباح الباكر إلى طليطلة ، وكان سفراً طويلا مرهقاً فى الذهاب والاياب استغرق أياماً ، وعاد إلى طليطلة أشبه بالمريض من شدة ما لاقى من وعثاء السفر الذى أجهد فيه نفسه ، ولم يستعن فيه بأحد حتى يبقى في ظل الكتمان الشديد ، واستراح يوماً أو بعض يوم ثم بدأ يعد عدته ويرسم باقى خطته فأتمها ، ومن غريب الصدف أنه ما كاد يصل إلى طليطلة حتى وضعت لندل طفلها فارتبك لأن برلى لم يصل بعد ولكنه اجتهد وأخفاه فى إحدى مخابئ القصر ، وظل ينتظر برلى وهو فى قلق شديد ، وبعد يومين كان القصر كله مشغولا بأفراح ميلاد ولى عهد غيطشة ومع أن

هذا كان حادثاً مؤلماً لجوليان (إذ أن هذا المولود أصبح صاحب الحق فى اعتلاء العرش بعد أبيـــــه) فان ذلك الحادث ساعـد جوليان على إتمام خطته .

وبعد يومين حضر برلى فى المكان المتفق عليه وكان فى حديقة نائية من حدائق أطراف المدينة ، فالتقى به جوليان فى الهزيع الأول من الليل خائفاً يترقب .... هل يراهم من أحد ، وكان جوليان فى أشد القلق من أن تفسد خطتـه ، وجلس يتلفت بين الفينة والفينة كلما سمع حفيف الشجر ، وبدأ يتحدث جوليان إلى برلى .

جوليان : أرجو أن يحضر الآن الطفل مع مرضعه الجميـــــلة (سلفيا) وهى كما أخبرتك من النبلاء ولكنها يتيمة حزينة ، فقدت والديها وأخيراً فقدت زوجها وطفلها واغتصبت أملاكها واضطهدت ، فأرجو أن تكون سعيدة فى كنفك يا برلى لأنك رجل طيب القلب ، وأؤكد لك أنها امرأة طاهرة عفيفه فلا تساورك من ناحيتها بعض ظنون السوء

برلى : تأكد يا سمو الأمـير أنى سأعنى بها ، ولا أظن فيها غير الطهر والعفاف .

جوليان : إن هذا هو الحق بعينه .

برلى : إنى لا أشك فى شهادة سموكم .

جوليان : وأما الطفل فقد اخترت له اسماً مستعاراً هو (درمس) وقد أحضرت له هـذا الصليب ويتكون من طبقتين ألصقت احداهما

بالأخرى وبداخله كتابة هى عبارة عن رموز لحاجة فى نفسى وعندما يكبر أرجو منك أن تسلمه إياه وتوصيه بالمحافظة عليه محافظته على حياته ، لأنه لو فقد منه يصيبه حادث يودى بحياته ، وما دام محافظا عليه فلن يصيبه خطر مهما يكن ، وقد عمله له رجل أثق فى تمائمه ، فعاهدنى على ذلك .

برلى : أعاهدك على ذلك وسأوفى .

وإذ ذاك سمعا صوت عربة تقترب من مكانهما فلما كشفاها وجداها ضالتهما ، ثم تقدم جوليان إلى السائق وقال له أتم كل شئ على ما يرام ؟ فأجاب نعم ! ثم تقدم لسلفيا وسألها كيف حالك بعد مجهودك هذا ؟

سلفيا : فى غاية الصحة وتمام الاطمئنان .

جوليان : وكيف حال الطفل العزيز .

سلفيا : عملت له كل الاحتياطات اللازمة لوقايته من أخطار هذا السفر الطويل فى الليل حتى أتمكن من الوصول به سليما معافى ، وهو الآن فى غاية الحفظ والصون .

جوليان : تقدم يا برلى ، هذه سلفيا النبيلة التى اخترتها لطفلنا العزيز وتكلمت معك بشأنها .

فيتقدم برلى إليها ويحيها بكل أدب ووقار فترد سلفيا التحية بأحسن منها .

جوليان : (يخاطب سلفيا) أنا الآن أودعك وديعة لدى هذا الرجل الطيب برلى ، وآمل أن يكفلك كفالة حسنة أنت وطفلك هذا وأتمنى لك وله مقاماً طيباً في جواره ، وسعادة فى حضانته ، ثم التفت إلى برلى وقال ، لا أوصيك بعد ذلك بسلفيا وأنا واثق من أنكما عندما تتعارفان سيكون إخلاصكما مبعوثاً من أعماق نفسيكما دون أى مؤثر آخر ، وأوصيكما خيراً بهذا الطفل العزيز .

وإلى هنا تفضلا ، وأشار لهما بركوب العربة فركباها ، وقال أستودعكما أطيب الأقدار وأحسن الأيام والتفت إلى السائق قائلا أوصلهم حتى راحلة برلى وارجع سريعاً ، ثم أشار إليه بالمسير ، فانتهى جوليان من هذه المهمة وقفل راجعاً ، وبالرغم من أنه كان مغتبطا باتمام خطته نحو ما كان قد فكر وقدر ودبر ، إلا أن همه لم ينته ، وما زال دائب التدبير والتفكير ومع أنه لم يتعود فى أموره الخوف والوجل فانه كان فى خبايا نفسه يشعر أنه على دخل يحرق الأرم ، وذهب إلى القصر خائفا يترقب يستنطق وجوه الحراس ، هل عندهم إثارة من علم عما حدث ويستقرىء الأمور والحوادث خشية أن يكون قد وقع ما يكشف الستر عن أمره ، أو ما يميط اللثام عن تدبيره ، وأنى لمثله الهدوء والاستقرار برغم أن كل شيء كان يدل على أن الأمور تجرى فى مجراها الطبيعي وتسير على مشتهاه ، ولكن المريب يكاد يقول خذونى ، كما يظن الآثم أن قلوب الناس تشعر به قبل أن تكشف

عيونهم خبيثة أمره .

ذهب إلى جناحه واستلقى على مقعد فى إحدى حجراته الخاصة ولا يكاد يصدق ما حدث ، وغرق فى بحر عميق من الافكار والهواجس ، ولكن قوة نفسه وثبات جنانه عاوداه شيئاً فشيئاً فقاوم الهواجس والافكار واطمأن بعض الاطمئنان ، وقد أثقلت جسمه مشاق السفر ومتاعبه فلعب الكرى بعينيه وتغاشاها فنام على مقعده نوما عميقا لم يستيقظ منه إلا بعد الضحا ، فلما أفاق شعر بهدوء نفسه وببعض الاطمئنان إلى فعله ، وعاوده تفكيره هادئا سليما معاودة استرجاعه لقوته ونشاطه بعد نومه وراحته ، فقال فى نفسه هذا توفيق غريب إذ يولد لغيطشة غلام في هذا الاسبوع الذى تضع فيه لندل ويتلهى القصر بميلاده فيشغل عما أهمنى . ألا لعنة الله عليك ياسامون أيها الخبيث الماكر تحرمنى حقوق العرش فيصبح مولود هذه الأيام ولى عهد غيطشة .

تقفون والفلك المحرك دائر   وتقدرون فتضحك الأقدار

ثم يقوم جوليان بتفقد بعض شئونه وينزل إلى الحديقة فتقابله وصيفة مريسيا زوجة غيطشة .

جوليان : كيف صحة طفلنا الأمير العزيز

الوصيفة : لم أر أجمل منه ، إنه مثال تام للأمير غيطشة وفيه شبه بسموك وصحته جيده وعلى ما يلوح لى أنه سيكون قديسا مباركا . . .

تفقدته بعد وضعه بمدة وجيزة وكدت أموت من الغم إذ لم أجده فى مهده بينما كنت مشغولة بشأن أميرتى ، فذهلت وفقدت رشدى وصوابى إذ كيف يفقد الأمير وأنا المكلفة بخدمته والمسئولة عنه ، وقد غابت المرضع وخرجت أمامي فى بعض شئونها وأنا متأكدة من أنه لم يكن معها ، وتحسسته فلم أجده ، فاعتقدت أنى مقتولة لا محالة ولا يكون ذلك جزاءً كافياً فى فقد الأمير بل توقعت من التعذيب ما يفوق الوصف ، وأن هذا الأمر سيكون شغل القصر الشاغل ، وقد لاحظت علىّ الأميرة كثرة اضطرابى وشدة لهفى ومبلغ جزعى فسألتنى عما أهمنى وكنت أحاول أن أستر خبيئة نفسى عنها اذ لا أقوى على إخبارها بفقده ولم يمض إلا ساعة (لا أعادها الله علىّ ثانية) حتى وجدته فى مهده ، مشرقاً كالبدر ، نامياً نمواً لا ينموه من كان فى مثل عمره الصغير ، صيغ فى جمال لم أعهده فى الأطفال من قبل ، فما أعلل ذلك إلا بما وقع فى خلدى ، من أن الملائكة رفعته إلى السماء ليباركه المسيح ثم أعادوه إلينا وقد تزود من هذه البركة ، هذا ما رأيته عليه بعد وجوده .

جوليان : إنك تهذين ولا أعتقد فى مثل هذه الخرافات ولا أحب أن أسمع حديث هذه الترهات ، فأمثالكن لا يعلق بذهنهن إلا أمثال هذه الأوهام ، انصرفى أيتها المخبولة إلى عملك وجناح أميرتك .

تنصرف وهى تقول غداً تتحقق نبوءتى فلا ترانى واهمة متخيلة

يا سمو الأمير !!

وتذهب إلى أميرتها فتحدثها الحديث الذى دار بينها وبين الأمير فتقول مريسيا، وهل تظنين أيتها الغبية أنه يسر بمثل هـذا التيمن لطفل أخيـه وولى عهده ، وهـو على ما اعتقد لا يهـدأ له بال حتى يثأر منـا ، وحياتنـا فى خطر شديد أمام حقـده وغله ..... نعود إلى جوليان الذى أخذ حظه من الاستراضة ثم يذهب إلى نورا حتى لا تستطيل غيابه فيتجاذبان أطراف الحديث .

نورا : أظنك يا جوليان حزينا . وانا أعلم فيك طبعاً غريباً عندما تكون مهموماً ، هو أنك لا تحب أن ترى أحداً ولو كان أعز أحبابك وتميل إلى العزلة والانفراد ، مع أن هذا يزيد همومك، والأولى أن تكون إلى جانبي فأسليك وقد كنت أحب أن أبعث فى طلب لنـدل لتذهب إليك فتسرى عنـــك بأحاديثها اللطيفة وحكاياتها الظريفة ، ولـكني لم أرها طويلا وكلما سألت عنها أخبرت أنها مريضة، وأراها الشهور الأخيرة حزينة مهمومة وتغـيرت طباعها واعتلت صحتها ، وكم حاولت أن أصل الى سرها فأخفف عنها ولكن أعيتني الحيلة فى أمرها فهلا ذهبت إليها وسألت عن صحتها وهي المخلصة لي ولك أكثر من إخلاصنا لأنفسنا ولا أظنها حزينة إلا منذ أن تغير نظام ولاية العهد ، فأرجو منـك السؤال عنها وعن صحتها حتى لا تقابل هذا الشعور الطيب بنكران الجميـل ، ورفه عن نفسك واترك همـك وحزنك فعسى أن

تأتى الأمور على ما تشتهى ونكون أسعد حالا مما قدروه لنا .

جوليان : حقيقة لنذل مخلصة ولكنى لا أجد متسعاً من الوقت للسؤال عنها كل حين وأصبحت أملها لأنها كما قلت حزينة على الدوام وعندى هم يكفينى ، ولكنى سأحاول الذهاب إليها والسؤال عن صحتها وتفريج كروبها .

نورا : شكراً لك ياجوليان ولكنى أرجو منك ألا تحزن لأن أخاك انجب ولى عهد ، ولا يكن فى صدرك حرج منه واظهر السرور والبشر وعجل بتهنئة شقيقك الأمير غيطشة ، فهو طيب القلب ولا يضمر لنا إلا كل حب ، ولم يكن له يد في إصدار هذا الأمر الذى حرمت بسببه من حقوقك فى ولاية العهد ، بل أعتقد أنه طيب القلب وقد أساءه هذا أكثر مما أفرحه ، كما أحب أن تقدم التهنئة لمريسيا أيضاً حتى لا تشعر بأنك تبغضها ، وبحسن سياستك التى أعهدها فيك يمكنك أن تكتسبها لصفنا لأنها امرأة خطيرة لايستهان بها وحتى يبقى سامون بلا مؤازر .

جوليان : أرجو ألا تجهدى نفسك فى مثل هذه الأمور ، والأولى أن تكونى بعيدة عنها كل البعد ، على أنى مستعد على أى حال لتهنئة أخى غيطشة ومريسيا أيضاً ، ولو أنى أكره رؤيتها ، وأرجو منك أن يكون هذا آخر أحاديثك فى مثل هذه الشئون .

نورا : عفواً فلم أقصد إثارة أشجانك وإخلاصى هو الذى حملني

على التحدث إليك فى هذا الشأن ، فكن راضيا وسوف ترانى منفذة لوصيتك هذه فلا أحدثك حديثا تكرهه وكفانى أنى زوجة مخلصة .

ومكث جوليان ما طاب له المكث عندها ، ثم ذهب إلى جناح ولى العهد فهنأه بميلاد ولى عهده ، فقابله ولى العهد أحسن مقابلة وأكرمه أى اكرام ، وأظهر له أنبل العواطف ، ثم ذهب معه لتهنئة مريسيا فقابلت هذه الزيارة بالامتعاض الشديد ، برغم أنها تمكنت من إخفاء ذات نفسها عنهما ، وحاولت أن تظهر لجوليان مثال المودة ، ثم عاد جوليان إلى جناحه الخاص .

لندل بعد الميلاد

ذهب جوليان إلى لندل يسأل عن صحتها ويسليها فى حرمها الخاص .

جوليان : كيف حالك يا لندل .

لندل : الحمد لله على أحسن حال .

جوليان : أريد أن أطمئن على صحتك ؟

لندل : الحمد لله ، أنا فى صحة جيدة .

جوليان : هذا جل ما أتمناه .

لندل : ولكنى علمت أن مريسيا وضعت غلاما وكان من واجبى أن أذهب لتهنئتها ولكنى لا أستطيع أن أغدو الآن وأروح فلا زلت

متعبة من آلام الوضع وأصبح احتباسى عن الذهاب إليها والغدو والرواح ، مقلقاً لى خوف أن ينكشف همى ، وكثيراً ما أرسلت نورا فى طلبى وأنا أعتذر إليها بمرضى فى الشهور الأخيرة ، حتى اضطرت لزيارتى فقابلتها فى سريرى حتى لا تكشف سرى ، وأصبحت لا أطيق حالتى هذه .

جوليان : لا تفكرى فى هذا فجميع من فى القصر لا يفهمون إلا أنك مريضة ، ونورا تخلص لك إخلاصاً عظيماً ولطالما ألحت علىّ فى أن أزورك خشية أن أكون مقصراً ، وإنها لتعطف عليك من كل قلبها ، وهى طيبة لا تفهم من الأمر شيئاً فاطمئنى من هذه الناحية ، وبعد قليل تعاودك صحتك فتستطعين تأدية الواجب نحوها (وأما من جهتى فلست آسفاً على فوات شئ من وراثة العرش فانى أرى البلاد مقبلة على فتنة دهماء .

لندل : كل هذا لا يشفى غليلى ولا يطفئ جذوة نفسى ، أمام نكايات سامون التى وقعت على رأسينا كالصواعق ، وتحملناها بكثير من المهانة والذل فكأنما رضينا منه بهذا المصير المؤلم ، فدع هذا وكفانى ما أعانيه ، وخبرنى إلى أين ذهب طفلى البائس الطريد الذى شردناه من أول ليلة أطل فيها على هذا العالم فياله من طفل تعس ، مثله يولد على سرير الامارة ويسربل بالحرير والديباج يرمق بالقلوب والأبصار بين أحضان والديه وحنانهم ، وهذا الطفل يلفظ لوقته ، كأنه

مبعوث إلى رمسه ، أو كمذنب مدنس بالعار ، يفر منه البررة الأطهار وما هو إلا البرئ الطاهر ، أوقعه سوء طالعنا فى مثل هذه الحال التى تشابه حال الاشقياء والفجار ، . . . . . يا لتعاستى وشقائى من عظيم ما حل بى ، فأنا الآن أكاد أذوب هلعاً عليه بعد ذهابه ، فكأنه اغتصب منى اغتصاباً وسَلَبَ منى معه كبدى ودمى وقلبى وعقلى وجنانى ، يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فانى لم أشعر بالأمومة إلا بعد ذهابه ، وغربته وارتحاله ، ونفيه وليداً ، وتشريده غضا رضيعا ، وفقده وشيكاً ، يا لهول ما ألم به وألم بى وما حيلتى . وقد كنت أظن أن شعور الوالدة لا يتغير ، وتبقى جامدة الاحساس نحو طفل لم يكد يطلق به قلبها لا تبكى ولا تتحسر ، يعوضه عنه حنان حبيبها ، وتستريح من مشقة إرضاعه وتربيته ، ولكنى لا أملك الآن هذا القلب ، فهو دائم التقلبات ، كثير الحسرات عظيم الغمرات ، يخفق ولا يزال يخفق حتى يخفت ، ويا ليته يسرع بى فأموت لأنى معذبة يا جوليان ، وقد نازعتنى العواطف والواجبات ، واختلفت علىّ المشاعر والاحساسات (ثم تبكى بكاءً يفتت الأكباد) .

آه . ليتنى أراك يا طفلى العزيز ، ليتنى أعرف مكانك فأرسل روحى إلى محرابك ، ليتك لا تلعن الأم التى أخرجتك من أحشائها ، ولفظتك أول يوم تخرج فيه من بيتها ، لأنها أم ساقطة لا تستحق الوجود ، وأنت ، أنت فى أطهر صورة أشرقت على الوجود .

جوليان : ماهـذا . أهى حمى النفاس أصابتك يالنـدل ، أم أصبحت لا تأبهين لوجـودى وتقـدرين أنى ميت الاحساس ، هـذا الطفل يا لنـدل ولدى كما هو ولدك ، إن تـكلمت فى شأنه أو سألت عنه بعد الآن فلا تعرفى جوليان .

لنـدل : ارفق بى يا جوليـان ، فالصدمات التى قاسيتها شديدة ، وفقد هذا الطفـل منى لطمة جديدة أحسست بها الآن ، فعسى بعد هذا يتحسن حالى وتهدأ نفسى وأفـكارى ، (وتستمر باكية تتكلم) إنى أم الخطيئـة ولا تنبت الخطيئة إلا خطيئة ، فأين الرحمـة . أم ليس للخاطئين من راحم . سلام عليك ياولدى فى المشردين ، وسلام على أمك فى الخاطئـات اللاتى لم تمت ضمائرهن . . . . . ياجوليان فى سبيلك احتملت كل هذه الآلام ، فتحمل من أجلى بعض ما أبوح به من خفايا نفسى لأخفف زفراتها ، وأنا لا أضمر لك بغضاً بل أحبك كل الحب .

جوليـان : لا يا لندل انتهينا ، فافتقدينى وافتقـدى طفلك إلى الأبد ، فمـا أراك إلا ذاهبـة إلى كرسى الاعـتراف لتعترفى أنك خاطئة إذا استمر وجدك هذا على ما أراه ، ولئن اعترفت فلن يهبك كرسى الاعتراف من نور المغفرة ما يقر لك به الناس ، ولن ترحمك التقاليد بعد ذلك .

لندل : لا أقصد هذا الاعـتراف والتقـاليد هى التى ظلمتنـا وجعلتـنى بعنادها أشعر أنى خاطئـة ، فمـا أعترف لظـالمة بمغفرة ، ولا

تعذبني يا جوليان فأنا أهذى مما أصابني ، وأنت تعلم أني أحبك وأفديك بروحي .

جوليان : كفى . كفى يا لندل إذهبي إلى التقاليد ، إذهبي إلى الواجب ، إذهبي إلى الفضيلة العالية السامية عن ريب الشكوك والدنس ، فأنا لا أحب أن أسمع بعد ذلك شيئاً ، فقد سممت حتى سئمت ، فانك على الدوام تعذبينني ، وتتركين بحديثك هذا في نفسي ألماً وحسرة ولا تذكرينني إلا ذكرك للأخساء الذين لا ضمير لهم ، فالآن أدعك إلى نفسك ولو إلى حين ، فانه ليس في مقدوري احتمال صواعق كلامك مهما تأسيت وصبرت ، فدعيني وجاهدي حتى تشقي لك طريقا جديداً ، ومستقبلا سعيداً ، تحت ظلال الكنيسة التي تقدسينها ، وفي شرف التقاليد التي تعبدينها ، وتحت سماء فضيلتك العالية التي تصعدين إليها ، فاسلكي سلوكا يرضى أخاك لذريق المظيم الذي تتوعدينني به من حين إلى حين ، وأنا الآن أحلك من جميع عهودنا ومواثيقنا ، فاسلكي أي سبيل أردت ، وأما أنا فذاهب لأنضم الى الجيش وأبعد عن عالم الغانيات الذي اتهمني به سامون وظن أن همتي انطفأت ورجولتي ذهبت بالاخلاد إليه ، ولكننا غداً سنكون معا فرسي رهان .

(تبكي لندل بكاءً مراً) .

لندل : أتألمت من حبيبتك إذ تصارحك بما في نفسها ، وتبثك

شجوها ، ولا تخفى عليك خطرات ظنونها ، وتسمعك دقات قلبها ، أقتلني فأستريح قبل أن تلفظني إلى الأبد ، يا جوليان ارحمني ، إن فقدت ولدي فلا أفقدك ، حنانيك . أخرجته من أحشائي وسأنزعه من حشاشة قلبي وسوف لا أذكره على لساني ، أما وعدتني أن تعترف به .... لا لا ، إني مقدرة ظروفك وظروفي ، فالقه في أليم ولا تحتفظ به ، سأربط على قلبي ولا أبدي به ، واقتلني إن خفتني ، وأمتني إن أردت سلواني ، ويل للنساء من عواطفهن ، ما أمر الهوى وتباريحه وما أعز الشرف وما أقساه ، إذا أسرتنا العواطف فما أسعدنا بالموت ، إن فقدتك فقدت كل شيء يا جوليان ، فهل تظن أني أقدر أن أخرج للمجتمع وليدة ثانية فأسمح لنفسي أن أكون بين الأشراف والنبيلات ، يا ليتني أملك قلبي وأشمر بطهارتي ، فأسمح لنفسي بتمثيل دور جديد من حياتي على هذا الأسلوب ، ولكني سأذكرك فلا أذكر بعدك شرفاً ولا واجباً ، بل لا أذكر بعدك إنساناً ، فصورتك منطبعة في خيالي وكلما مر طيفها علي نسيت ما قلته ، وأدركت أني آثمة في حقك ..... أنا المحتاجة الى حبك ، اشتريته بأعز ما في نفسي وفديتك من أجله بروحي وحياتي ووجودي ، فسوف لا تسمع مني كلمة تسوءك ، وسأروض نفسي على أن أنسى الحياة وما فيها ، وأفقد كل شعوري إلا شعوري بوجودي الى جانبك ، وما تعودت منك الا رقة القلب وعدم الجحود .

جوليان : لقد سمعت ذلك منك كثيراً ولكنك لا تلبثين أن تعودى إلى تلك النغمة السيئة المحزنة التى أتمنى ان أكون من سكان ذات لظى ولا اسمعها، وأراك يتنازعك الآن عاملان، يطوف بك الحب ساعة وساعة يهبط عليك العامل الثانى، وإنك الآن فى حاجة إلى الراحة بعد كل هذا العناء والجهد، وتلك الذكريات المؤلمة، فسأودعك ولن أنساك ما حييت ...... ثم يقف مودعا فتناجيه وهو ينصرف.

لندل : يا آسى همى، يا مالك عقلى، لا تسلبنى حياتى وتذهب، ألا تذكر عهودك نحوى، ومواثيقك عندى ألا تذكر تضحياتى من أجلك، وبيع نفسي فى حبك،.. أين حبك من حبى، أين عهدك من عهدى، أين وفاؤك من وفائى، أين قوتك من ضعفى، أين هجرانك وبعدك من وجدى ووجودى، أين سلوانك وقسوتك من حنينى ورقتى، (وقد سال دمع عينيها فبلل وجنتيها وانهمر إنهماراً، ثم خارت قواها واعترتها الحمى، فغابت عن الحس والوعي).

ودخلت خادمها الأمينة المخلصة فوجدتها غائبة عن وعيها، فتأثرت لمرضها وبقيت لتعنى بها، حتى أفاقت وهي حزينة، واستمرت لندل على ذلك أياماً إلى أن عاودتها بعض قواها، ولكن الحزن غالب عليها، وخادمها تحاول أن تخفف ما بها، وهيهات هيهات أن يخفف من همومها انسان، بعدما سكن الحزن قلبها، وانهدت فى

نفسها أركان آمالها ، وأصبحت تنظر إلى الدنيا غاربة غير مشرقة ، ولا آمالها مولية غير مقبلة ، وترى ابن آدم فتتصور أنها تنظر إلى شيطان ، وأني لها أن تراه على غير هذه الصورة بعد ما رأت من حبيبها جوليان ، وهو من أرقى الطبقات ، وقد تربي على أحسن الأخلاق والصفات ، وتذكر ابنها فتئن وتتوجع ، وكم لها من أنات لو أنها تصل إلى قلوب البشر لمزقتها من كثرة ما يصعده قلبها من الحرقة والزفرات ، ولكن الناس فى لهوهم وقساوة قلوبهم لا يسمعون ، وكلما رأت طفلا يتيما بائسا ، حسبته ولدها وضمته إلى صدرها وحبته أعظم عطفها وحنانها ، فهي تفيض عليه من فيض قلبها المكلوم ومن حنان نفسها الثكلي ، ثم تقول لقد تركني جوليان وذهب إلى الجيش ولعله يريد أن يكفر عن خطيئته ويخلص من همه وربقته ، ثم تنوى الخروج إلى الدير . . . إذ لا سبيل لها فى الحياة إلا سكناه ، بعد أن تربع الهم على قلبها ، وسلبها البكاء حسنها وملاحتها ، وضميرها من فوقها يرسل عليها صواعق الندم وبواعث الآلام فتنادى نفسها إلى الدير . . . إلى الدير .

وانتقلت إليه من عالم الغانيات الفاتنات ، فأصبحت فى عداد التائبات الناسكات .

الباب الخامس

جوليـــان ينضم إلى الجيش

مضى أيام استراح فيها جوليان من مشاغله نحو لندل وطفلها ، وحزم رأيه ، وجمع أمره ، على الانضمام إلى الجيش ، لولا ما يجيش فى نفسه أحياناً من حنين إلى لندل ، وعطف عليها ، لا تلبث إرادته أن تقوى على مغالبته ، فقد حذر نفسه أن يعاود زيارتها ، أو يهوى إليها حتى لا يرق لحالها فينثنى عن عزيمته ، أو تحول بين إتمام رغبته ، فلما غالب نفسه وقهرها ، وقوى عليها وحكمها ، أخذ أهبته وأعد عدته ، واستأذن جلالة الملك فى مقابلته ليبدى له رغبته هذه ، فأذن له ولكنه حتى فى هذه الزيارة لم يخل له الجو فقد كان سامون حاضراً وقتها فى مكتب الملك الخاص ، حتى لا يكون بين جوليان وبين الملك حديث لا يطلع عليه ، وحتى لا يبرم أمر من غير مشورته ، وأبداء رأيه فيه ، فأحس جوليان فى نفسه انقباضا شديدا لوجوده وعول على أن يصليه نارا حامية من صواعق الكلم ، ولو أدى ذلك إلى خروجه من قصر الملك والبلاد ، وعزم على أن يشق على والده عصا الطاعة إذا ظل مواليا لهذا الرجل الدساس . وحيا جوليان الملك فرد تحيته وأذن له بالجلوس .

الملك : ما شأنك .

جوليان : جئت لأشرح لجلالتكم حالة البلاد .

الملك : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين .

جوليان : لم أعص لجلالة الملك أمراً .

الملك : تكلم وأوجز .

جوليان : أرى أن حالة البـــلاد تنتقل من سيئ إلى أسوأ وأصحـــاب الأقطاع قد ملئوا البلاد جورا وظلما وأحلوا قومهم دار البوار فانصرف الشعب عن العمل ، إلى تقديم المظالم وإثارة الفتن فلم تعد أسبانيا ذات الخيرات والبركات ، بل أرضاً مجـدبة ولو استمر الحال على ما هو عليه ، ونار الفتنة يعلو أوراها لذهبت أسبانيا بمن فيها إن لم تتداركها حكمة جلالتكم وتهديها برأيكم الثاقب غير متأثر بآراء أحد .

سامون : هـذا ما كنت أتوقعه وعارضنى الأمير فى رأيى وخطأ ظنونى وهو لو تحرى لعلم أنى أخلص لجلالة الملك ولا أخفى عنه شيئاً ، ولكننى مطمئن للمستقبل ، ولسوف نتغلب على هذه الفتن بنفوس قوية وعزم ثابت ، وعلينا أن نفكر فى هذه الأمور بهدوء بعيدين عن ثورة الغضب التى تعمى أعيننا عن الصواب وتدبر الأمور .

جوليان : نعم كنت تتنبأ بالفتن والشرور وكنت أراها بعيدة عن البلاد ولا زلت أعتقد أنه يمكن تداركها ، إلا إذا احتمل جلالة الملك نتيجة سياستك ، وطاوع آراءك واهتدى بمشورتك ، وكل الفتن دائرة حول اسمك ، والحقد علينا وعلى الملك من أجلك ، هذا رأيى

أبديه ولا أرهب شيئاً ، فالأمر الآن جد لا يحتمل الأناة والصبر والمراوغة ، ولو كنت عادلاً حصيفاً تزن الأمور كما تدعى ، فأنت صاحب إقطاعية هل عدلت فيها ؟ هل أرضيت خدمك فيها ؟ هل أعطيتهم حقوقهم ، هل جزيتهم شيئاً من عرق جبينهم ، هل عاملتهم معاملة الانسان لأخيه الانسان ، إن الهنا لا يعاملنا مثل ما تعاملون الرعية ، وهو دائم العطاء ، لا يحرمنا أعز نعم الحياة ، وقد وهبنا الحرية الكاملة تحت سمائه وفوق ربا أرضه ، وكثيراً ما نخطئ في جانبه ولا نقوم بجزء من حقه علينا ونخالف أوامره وننتهك حرماته ، فلا يخسف بنا الأرض ولا ينزل السماء علينا كسفاً ، وإذا اعتذرنا إليه قبلنا ، أما أنتم يا أصحاب الاقطاع ، فتسلبون الناس حريتهم ، وتمنعونهم حقوقهم ، وتسألونهم أن يقدموا الطاعة صاغرين ، فاذا ما طالبوا ببعض حقوقهم بعد أن يعضهم الجوع بنابه ، تقتلونهم قتل الأنعام ولا ترقبون لهم إلاً ولا ذمة ، وهل بعد ذلك يا سامون تنتظر أن يعم الهدوء ، وتنتشر السكينة على ربوع البلاد ؟

سامون : أنا أكدت لجلالة الملك مراراً رغبتي في اعتزال الوزارة إن لم أكن محل ثقته ، وفي حكم إقطاعيتي ما يكفيني لولا أني أجد من الجبن وعدم الاخلاص إلى جلالته التخلي عنه في مثل هذا الوقت ، وما أظن أننا وصلنا إلى هذه الحال ، إلا من تشيعكم لمثل هذه المبادئ الخطرة ، تبثها في المحيطين بك حتى أذاعوها في طول

البلاد وعرضها ، فهاجوا على حكام الاقطاعيات ونازعوهم الحقوق التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم النبلاء ، ظلماً وعدواناً ، وهذا هو حال البلاد من زمن طويل ، فلم يثورون الآن ؟ إعلم يا جوليان إذا تساوت الرؤوس هلك الراعى والرعيه ، واختلط الحابل بالنابل .

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وإنى ضد هذه المبادئ ، وأنادى بأعلى صوتى أنها ستؤدى بالبلاد إلى فتنة دهماء لا تبقى على أحد ، وما كنت أحسب أن يجرؤ الأمير على الجهر بها فى مواجهة جلالة والده ، فهذه المبادئ تدعو إلى الثورة ، وتدعو إلى اجتثاث الملكية من أسبانيا ، لأنهم إذا اجترءوا على مناوأة أصحاب الاقطاع واستلاب ميراثهم ، فانهم غداة غد يجترئون على الملك ، ويغلب على ظنى أن هذه المبادئ لم تساور فكر الأخير إلا حقداً على ولى العهد .

جوليان : (مقاطعا) كفى يا سامون ، أنت تريد أشعال نار الفتنة داخل القصر وخارجه .

سامون : لا تقاطعنى فان الأمر ليس مهاترة ومن واجبي نحو أسبانيا والملك أن أجاهر بالخطر المحدق الذى تجابه آراؤك وأكشف عن كوامن نفسك . نعم . لم أسمع هذه الآراء إلا من بطانتك ومن الذين يتشيعون لك ويقتدون بآرائك ، وإن آراء تصدر من مثل من كان فى سمو مركزك تسير فى البلاد سير الريح ،

وإنه من يوم أن أمر جلالة الملك بتغيير نظام الوراثة ، وأنت حاقد على أخيك غيطشة ، تبث الفتن حتى لا يعتلى العرش إلا والبلاد مشتعلة بالفتنة التى تقوض عرشه .

جوليان : (مقاطعا) لا أسمح لك أن تستمر فى الكلام ، ولولا احترامى لجلالة الملك لطلبت مبارزتك قبل أن أقوم من مقامى هذا ، فأنت تتهمنى تهماً على جانب كبير من الخطورة ولسوف تعلم غداً أينا أشد جلداً وأقوى .

الملك : لقد أسرفت فى القول يا جوليان ، ولا أسمح لك بأكثر من ذلك .

جوليان : وهل تسمح جلالتكم بافترائه علىّ وباتهامه إياى .

الملك : حقاً لقد أسرف سامون فى اتهامه ، ولكنه شكا لى أنك تبث هذه الآراء التى سمعتها منك الآن وهذه الآراء تثير الأهالى على سادتهم النبلاء وأصحاب الأقطاع ، وأنت تطلب عدل السماء يحكم به الملوك فى الأرض ، وهذا غير ممكن .

سامون : وأنا أتهمه أنه يعادى ولى العهد ، وأؤكد اتهامى غير هياب ولا وجل ، وقد عرفته مراراً رغبة جلالتكم فى انضمامه إلى الجيش إذا كان مستعداً للدفاع عن عرشكم وهدوء بلاده وحتى يتفرغ لترقية الجيش والعناية بأمره . ويبتعد عن الاشتغال بهذه الشئون التى لا تعنيه ، وحتى يبنى مجده فى خدمة أسبانيا ، ولكنه رغب عن

ذلك ، ولم يطع أمر جلالتكم حتى كان ذلك سبباً فى حرمانه حق وراثة العرش مع أنى أطلعته على عزم جلالتكم قبل إصدار قرار نظام وراثة العرش الجديد ، ولو قبل لعدلتم جلالتكم عن إنفاذه واعلانه (ثم يلتفت إلى جوليان أليس كذلك ؟) .

جوليان : أنا مستعد للانضمام إلى الجيش فوراً ، حتى لا أكون متهماً بمثل هذه التهم وحتى يعلم جلالة الملك أينا أكثر إخلاصاً وأوفى .

الملك : بخ بخ يا جوليان ، الآن أعتبرك ولدى وأهلا للانتساب إلى اسمى وأسماء أجـــدادك العظام وتعويضاً لك عما فقد منك أتنازل لك خاصة عن إقطاعية سبته ، وأعقد لك لواء الجيش فى هذه المنطقة وما جاورها ، وأدعو الله لك بالفوز والنصر وأن تكون خادماً مخلصاً لأسبانيا وللعرش .

(أسقط فى يد سامون ورد كيده فى نحره ، وإلى هنا فشلت دسائسه وخاب تدبيره إذ كان يعتقد أن جوليان لا يرضى بأية حال أن ينضم إلى الجيش ، ويهجر القصر والتمتع برؤية بنات الأشراف ويترك لندل) .

سامون : سمعاً وطاعة يا جلالة الملك ، وإن كنت أخطأت وتجاوزت حدودى أو أسأت بعض الاساءة فى حق الأمير جوليان ، فما ذلك إلا غيرة على بيتكم وإخلاصاً لجلالتكم ، وإن نبل الأمير لينأى به عن أن يفهم أنى رغبت فى إساءته ، وهو العريق النسب

الكريم الحسب ، وإنى أختار له مقاطعة اشبيليه لعظمتها عن سبته إذا وافق ذلك رأى جلالتكم .

الملك : إنى لا أرجع فى أمر أمرت به .

سامون وجوليان فى نفس واحد : سمعاً وطاعة .

ثم انصرفا من حضرته .

وفى الحقيقة كان سامون مخطئاً فى اتهامه جوليان هذه الاتهامات الخطيرة فى حضرة الملك ، وقد غيّرتْ رأى الملك فى جوليان ، وأحس عاطفة شديدة نحوه لم يكن يعهدها من قبل ، ولو أنه يعتقد فيما بينه وبين نفسه أنه ليس ابناً له ، ويتهم زوجته فيه ، لأنه غاب فى حرب من الحروب مدة طويلة عاد بعدها فوجد أن زوجته قد حملت فيه ووضعته ولكنه لم يثبت هذا الشك أو ينفيه ، ولم يقو يوماً من الأيام على التصريح بما يساوره نحوه ، ولكن كان لاتهامات سامون إياه بهذه الجرأة والقحة (التى اعتبرها سامون شجاعة منه فى مثل هذا الموقف) وخز شديد فى نفس الملك وأدرك أن سامون خدعه وقتا طويلا ، وأصبح يشك فى إخلاصه ، ويرى أنه كان لا يستحق منه هذه الثقة التى حباه بها أمداً طويلا ، وهذا التأييد الذى ناصره به فى كل ما يشير به ، وشعر أن أخبار جوليان على جانب كبير من الصحة ، وأن المبادئ التى يدعو إليها هى مبادئ العدالة (والعدل أساس الملك) وقِوامُ حياته وعمرانه ، وإن حقوق

النبلاء وأصحاب الأقطاع لا تصل إلى حد الجـــور والعسف والظلم والقتل وإلا أقفـرت الديار من ساكنيها ، وزيادة السكان ورفاهيتهم عليهما مدار العمران وقواعد وجوده ، وإن المالك والعامل صنوان فى الحقوق وكلاهما حرى بمراعاة الوالى واهتمامه ، وإلا اختل نظام الملك وساءت حياة الأمم ، ورأى أن سامون بالغ كثيراً فى نقضه هذه المبادئ وأن رده عليها لم يكن مقنعا تمام الاقناع ، فقد غلا فى حقوق النبلاء والملاك وحقر من حقوق المستعملين فى عمارة الأملاك ، وغالط فيما يحسبه وضع الأمور فى نصابها ، مع أن الأمور لها موازين تقاس بها ، وأن كل مبدأ (ولو كان فى بعض أصوله صحيحا) إذا بولغ فيه انقلب إلى ضده ، وفى هذا اختلاف الناس ، ومن هذا يستغلونه حسب أهوائهم .

وأدرك الملك أنه أخطأ يوم أن وافق سامون على تغيير نظام الوراثة واعلانه فى البـــلاد ، وأن اتهام جوليان بالحقد والتآمر على غيطشة كان لحاجة فى نفس سامون قضاها . وأصبح الملك من هذا اليوم يرتاب فى اخلاص سامون ، ويسفه رأيه فى كثير مما يعرضه عليه من شئون المملكة ولا ينفذ له آراؤه . أما سامون فقد خرج من حضرة الملك وهو يحس أن نجمه قـــد أفل ، وسحره قد بطل ، وأنه لم يكن موفقا إذ أخفق أمام جوليان ، وأن جوليان لم يعد ذلك الوادع الجبان وأنه سفر له في حلبة الميدان ، وشأنه بعد ذلك أكبر

خطراً ، وقد رأى سامون أن الخطة التى يجب عليه اتخاذها مع جوليان بعد ذلك هى أن يظهر له الطاعة والخضوع ، وأن يوادعه ويخادعه حتى ينام عن عداوته ويأمن جانبه ، ثم يأخذ الحذر من مأمنه ، وأما جوليان فقد خرج من حضرة الملك خروج الظافر بعدوه المصر على نزاله والثأر لشرفه والانتقام منه ، إذ حال بين زواجه من لندل وحرمه حقه فى الملك واتهمه أمام أبيه بهذه القحة ، ويقول فى نفسه لولا أن ضبطت شعورى أمام هذا الداهية الماكر لظفر بى وانتصر على ، ألا لعنة الله عليك يا سامون ، هل بلغ من غرورك بسطوتك ونفوذك أن تستهين بمقام الملك وأبنائه ولا تزن كلامك أمامهم ، ولكن لولا غرورك هذا واعتدادك بقوتك ما انتصرت عليك وما ظهرت جلية أمرك أمام الملك ، ثم مضى لشأنه وانضم الى الجيش وتسلم مقاطعة سبته ، ومن هذا الوقت بدأ سامون يخاف جوليان ويرتعد منه وغير سياسته معه من قوة وجرأة وإنفاذ أوامره عليه إلى لين وضعف واستسلام ، ولم يتوسط فكانت سياسته معكوسة عجلت فى افول نجمه ، واستضعاف شأنه حتى أصبح لا يرهب له جانب .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

وفى الحقيقة أنه اذا حان وقت سقوط الرجال كانت كل سياسة يسيرون عليها تأتى بعكس ما يشتهون ، إما وقت صعودهم فان الأقدار

تواتيهم والتوفيق يلازمهم ، وترى أخطاؤهم حسنات .

جوليان فى أرض سبته
وظهـــــور لذريق

تسلم جوليان زعامة جيش سبته وما جاورها ، وسار سيراً حميداً حبب فيه رجال الجيش وأهـــالى سبته ، فطار صيته ونبه شأنه وأصبح آمراً مطاعاً ، وتغنى الشعب الأسبانى كله بعدالته ونبله وصار رجل أسبانيا الأوحد وعلمها المفرد وطابت نفسه بهذا النفوذ والثراء ، وتبرم بأيامه الماضية ، وتذكر ما لقيه فيها من عنت وعناء ، ولقد كان أحيانا ينسب إخفاقه وضياع زهرة عمره ، وعدم بلوغ شأوه ومجده لانصرافه إلى حب لنـــدل ، وتضييعه فى مناجاتها معظم وقته ، ولكنه كان مع ذلك يراها لازالت ماثلة فى فؤاده يذكرها كل حين ، ويجد أنها أثمن متاع له فى الحياة ، وأنها أعز من المجد والشهرة ، وكان يسافر أحيانا إلى طليطلة ويطوف بالدير ليلاً لعلها تناجيه ولكنها كانت تراه وتنصرف عنه للعبادة والنسك ، فقد أصبحت راهبة ، ومع أنها كانت تحبه كل الحب إلا أنها آثرت ألا تناجيه ، حتى لا ترجع لحياة الحب والآلام ، فيعود جوليان إلى سبته وهو يرثى لحالها ، فى حالة أشبه بحالات الزهاد من حالات قـــواد الجيش وأصحاب الأقطاع ، وهـــذه الحال النفسية جعلته يزهد فى متاع

الحياة ، ويعدل فى أرض سبته عدلا كان حديث الناس فى أكثر الأقطاعيات وشجع الأهالى على الثورة على أصحاب الأقطاع وعلى محاكمهم التى هى أشد هولا من محاكم التفتيش التى ذكرها التاريخ ، ولكن أصحاب الأقطاع بدل أن يقابلوا ثورتهم بالعدل والاصلاح ، قابلوها بالشدة والعنف ، والعسف والجور ، يشنقون الرجل لأتفه التهم التى لا يقوم عليها دليل ، أو من أجل ثمرة يتذوقها من بستان سيده ، أو رغيف يقتات به من شدة الجوع ، والحبوب مكدسة فى مخازنهم يبيعونها الناس بأعلى الأسعار ليستردوا الأجور التى دفعوها إليهم عن طريق الاحتكار المقوت ، فلا يبقون لديهم شروى نقير ، ويصدرون الفاضل منها إلى خارج البلاد ، يستبدلون بها الذهب والجواهر ليكدسوها فى دورهم ، ويتباهون بها في حفلات نبلائهم ، وفوق ذلك يبغون عليهم ويسومونهم سوء العذاب .

ولكن إذا زاد الظلم انفجرت النفوس ، وخرجت الروح البشرية الأبيــة العالية من مكمنها فنبهت النفس المجسدة المستعبدة إلى ما تقاسيه من ظلم واستعباد وجور واضطهاد ، ووهبتها قوة تبدد الظلم والظالمين .

ولما اشتد الحال على أصحاب الأقطاع إتهموا بعضهم بعضاً باثارة هذه الفتن وابتدأت الحرب الأهلية فى الظهور ، وتجرأ غرديق على إظهار عداوته لسامون ، بعد أن كان يهادنه ويلقى إليه بالمودة ،

وذهب فى جمع من أصحاب الأقطاع إلى الملك يطلب عـزل سامون خوف اشتداد الفتنة ، وأشاروا عليـه باختيار لذريق للوزارة ، فصادف ذلك هـوى من نفس الملك ، بعد ما تبـين سوء نيات سامون وأن الاستمساك به بعـد ذلك مُضِرّ به ، وندم لأنه لم يقتلع جذور هذه الضغائن فى وقتها ، لأن سلامة الملك فى الاتحاد والألفة .

وتولى لذريق الوزارة وكان صغير السن إلا أنه كان ذكياً لبقاً وأخلص النصح والعمل فهـدأت الفتنة إلى حين بين أصحاب الأقطاع ولو أنها لم تهـدأ فى نفوس عامة الشعب وسار لذريق فى الوزارة سيراً مرضياً حببه إلى الملك حـتى أصبح صديقاً شخصيـاً له حائزاً لتمام ثقتـه ورضـاه ، نادماً على ما فـرط فى مودته من قبل ولكن لم تطل أيام الملك ، فقـد قعدت به راحلته وأعياها العجز والشيخوخة فلم يلبث إلا قليلا حتى فاضت روحه .

مات الملك ليحى الملك .

الفصل السادس

ملك غيطشـــة ووزارة لذريق

اعتلى غيطشة الملك بعـد وفاة أبيه ، وهو كما عهدناه وعلمنـاه سليم النية ، حسن الطوية ، لين العريكة ، وادع الطبع ، وكان أُمَنَةً حسن الظن بالنـاس والأيام ، قليل الدربة والدراية بأصول الحكم ، يميل إلى

العزلة من أول عهده ، فظهرت آثار هذه الصفات فى سياسته أيام حكمه ، إذ كان لا يتصرف من تلقاء نفسه ، مستسلماً للظروف ، تسيره المقادير ، لا إرادة له ، يعهد بأخص أموره إلى حاشيته ووزرائه ، وكان إلى جانبه لذريق وزيراً ، ذكيا لبقا ، عاقلا مسدداً ، سياسيا حريصا ، شهما شجاعا ، له إرادة تفل الحديد ، يتحين الفرص ويكتسب الظروف ، سار إلى جانب غيطشة ، سير الرجل المخلص المتفانى فى خدمة سيده ومليكه . واستمر على ذلك ردحاً من الزمن ، وهو يسوس له الأمور أحسن سياسة ، حتى مكن لنفسه فى الدولة وأصبح فيها صاحب النفوذ والخطر ، وكان إلى ذلك الوقت ، صديقا وفيا ، وأخا كريما للأمير جوليان صاحب سبتة ، الذى تحقد عليه مريسيا ، وكلما زاد فى صداقته له ازدادت مريسيا حنقاً على جوليان وغيرة منه ، فبدأت تحيك له الدسائس وتدبر له المؤامرات .

وفى كل الأمور والمناسبات كان يبدو ضعف غيطشة أمام لذريق حتى عرك عوده ، واستلان ملمسه ، واستضعف نفسه ، فملك زمامه ، وأصبح لا يرى فيه ضرا ولا نفعا ، وتداخلت مريسيا فى تدبير شئون المملكة وغيطشة لا يرى فى ذلك بأسا يستمع لرأيها ، ويكبر أمرها ، حتى اضطر لذريق أن يدخلها فى حسابه ، لكيلا تنازعه ، فصار يتردد عليها ، ليتعرف رأيها قبل إقدامه على إبرام أى أمر من الأمور ، وكانت داهية ماكرة مع ما لها من جمال

ودلال ، وكان لذريق إلى ذلك الوقت متعففا حذراً ، وكانت تستبقيه لديها وقتا كبيراً تحدثه فى شئون لا أهمية لها ، حتى ارتفع الحرج بينهما ، وبدأت تضرب له على أوتار الحب بالاشارة دون العبارة ، وباللحظ دون اللفظ ، تسقيه سحر عينيها ، وهو لا يجرؤ على مبادلتها الهوى ، ويراجع نفسه ويحفظ اتزانه ، نظراً لما يقتضيه مركزه ، ويخشى أن يكون مخدوعا فيما يظهر له من عواطفها ، وأحيانا يتوهم أنها تنصب له شركا وتحوك له دسيسة تهلكه بها ، ولكن أنى له أن يقاوم هذه المرأة الخبيثة وهو رجل شهوانى قوى الحيوية ، وهى امرأة ماكرة تعرف كيف تقتنص فريستها ، وكيف تغريه وتستغله فى نكاياتها ، فكانت تنقر على قلبه نقراً يحرك عواطفه ويثير شهواته برغم مكابرته ، حتى أذكت فى نفسه الرغبة ، وانسته الحذر وغيبت منه العقل ، وهكذا يقع الرجال فى حبائل النساء إذا أكثروا من مخالطتهن ، ولما أوشك أن يصارحها بما فى نفسه ، غيرت موقفها نحوه ونصبت له شراكها حتى يكون طوع يديها فيما تبتغيه منه فقالت :

مريسيا : إنى يالذريق أصبحت غير مطمئنة إليك ، فأرجوك أن تقلل من زيارتى ، وإن كان لك أمر تستشيرنى فيه ، فيمكنك مخاطبة الملك لأنى أرى فى سلوكك بعض ما يريبنى ...

فجمد الدم فى عروق لذريق وتصبب منه العرق وأصبح حائراً فى موقفه ، إذ كانت ترمقه بنظرات تفصح عما فى مكنون نفسها

وكانت أبلغ من تعبير اللسان ، ولقد كان يتخوف من ناحيتها ، فلم يشر إليها أية اشارة يفهم منها التعريض بحب أو رغبة ، وكان يعمل لها ولهذه التهمة التي يخشى أن تهلكه ألف حساب ، فحار فى أمره وارتبك ، وظن أنها ستغدر به ومع أنه أحبها حقيقة فقد كان يدافع هذا الحب لخطورته وما تستوجبه الأمانة ، ولو أنه أصبح يرى الملك ضعيفاً لا يقام لوجوده وزن ولا يستحق أى اهتمام ، ولكنه كان يراها على أية حالة زوج رجل آخر ، فاستجمع نفسه وأجابها :

لذريق : ما أقدمت على الاكثار من زيارة الملكة إلا لما حسسته من رغبتها فى تعرف شئون المملكة ولما عودتنى من أن أسمع رأيها الصائب فى كثير من الأمور ، وما أرانى إلا ملتزماً حدوى فى كل ما أقدمت عليه ، مراعياً حرمة مليكى ، وأنا أعدك من الآن أن أمتنع عن زيارتك لا عن زهد فيها ولكن طاعة لأوامرك (وظهرت على لذريق عوامل الجد والغضب) .

مريسيا : لا تظن أنى أطلب إليك ذلك رغبة عن مقابلتك وأنا أرى فيك حصافة الرأى وسداد المشورة ، وشهامة ورجولة جعلتنى أعجب بك أيما إعجاب ، وأظنك تشعر بهذا الاحترام نحوك ، ولكن هناك بعض الملاحظات التى تقتضى أن تحاط بها علماً ، ووجدت من اللياقة ألا أبلغك إياها بنفسى ، وقد حان الوقت الذى يجب فيه أن تعلمها حتى تتقيها ، أما وقد رابك منى هذا فانى مستعدة

لأن أشافهك بها إذا أذنت على أن تعاهدنى أن تبقى سراً مكتوماً .

لذريق : إنه ليسرني أن أعلم هـذه الملاحظات إذا تكرمت وأعاهدك على الـكتمان .

مريسيا : إنى أراك تعطف عطفـاً قلبياً على الأمير جوليان وتستشيره فى كل أمر وتعمـــل برأيه ، وكل المعلومات التى وصلتني تجعلـنى أشك فى إخـلاصـه للملك ، وأنه يعمـــل فى الخفـاء ضـده ، وكنت أحب من الرجل الذى أخلص له ، أن يشاركنى في شعورى ويعمل طبقاً لما يرضينى ، من غير اشارة إلى ذلك ، فلملك لا تعـلم ذلك من جوليان وتخدعك مظاهره .

وكانت مريسيا أثنـاء حديثها تذيقـه سحر عينيهـا ، وتشير إليـه إشارات واضحة ، وتـكاد تميل عليـه من التدلل والاغراء ، فلم يعد يشك فى أمرها ، إلا أنه يراهـا إمرأة لعوبا ماهـــــرة ، خطرة منتهى الخطورة ، وهـو كرجل من البشر ، لا يستطيع بعد هذا كبح جماح نفسه مهما غالبها ، ومهما كانت النتائج ، وأصبح يرى نفسه معرضا للخطر من كلتا الناحيتين ، فى حالة القبول أو فى حالة الرفض ، ذلك لأنهـا كانت أقوى منـه فأوقعته فى شراكها ، وأصبح فى حيرة من أمرها ، يخاف وخيم العاقبـة ، فلم يتـكلم وظل صامتا يحدجها ببصره ، ويبحث عن مخرج يخرجه من ورطته .

مريسيا : لمَ لا تتكلم ؟. أعاهـدك على كتمان ما يدور بيننـا ،

فيجب أن تكون معى صريحا . أم أنت لا تحب أن تبيع صداقتك لجوليان ؟ أو أعجزك نفى التهمة عنه ؟

لندريق : لم أر فى الأمير جوليان إلا الاخلاص للملك ، وهو رجل ذو أخلاق عالية ولم أعلم عليه من سوء .

مريسيا : إذن أنت لا تحبنى .

لندريق : أنت زوج الملك وأنا أخلص للملك والملكة .

مريسيا : لا أعتبرك الآن إلا من أنصار جوليان ، فأحلنى من عهدك حتى أخبر الملك ليكون على بينة من أمرك وأمره .

لندريق : أحللتك يا سيدتى من كل عهد ، وسأبقى وفياً للأمير جوليان وهذا هو الاخلاص للملك .

مريسيا : لا تحسب أن جوليان شقيق الملك فمنذ سنتين كان الملك يود أن يظهر الحقيقة ويتبرأ من نسبته إليه ، ولدينا كتابة بخط الملك تثبت ذلك .

لندريق : ولكنه لم يفعل .

مريسيا : هل يمكنك أن تجيبنى ، وأنى لسائلتك ؟ أختك لندل كانت نبيلة ذات جمال عظيم ، فلمَ اختارت الدير وترهبت فى سن الشباب ؟

لندريق : وما الذى تقصدين من ذلك ؟

مريسيا : لأنها أحبت جوليان فرفضها كما رفض صداقتى الآن !

لذريق : لقد اختارت طريقا شريفا .

مريسيا : وهل تظن أنها اختارته راضية ؟

لذريق : وما الذى تريدين أن أفهمه ؟

مريسيا : يمكنك أن تفهم ما تشاء !

لذريق : سأذهب إليها فى الدير وأجتهد أن أعلم خبيئة أمرها .

مريسيا : هذا شرف دفن من مدة فلا تنبشه الآن ، وماقصدت إلا أن أعرفك الرجال الذين تثق بهم من أمثال جوليان .

لذريق : الشرف لا يدفن ما دام رجاله أحياء ، فلا بد من الذهاب إليها وكشف الحقيقة .

مريسيا : إذا كنت مصمماً على ذلك فأرجو منك إذا أنكرت ، أن تقول لها لقد أخبرنى القسيس ، فتعترف لك بكل شىء ، ويجب أن تحضر لمقابلتى فى المساء لأعلمك بباقى معلوماتى عن جوليان الذى تثق به .

قام لذريق من فوره وعيناه ترميان بشرر من شدة الغضب ، وامتلأ حمية وهو يحاول أن يصرف عن نفسه ، مخافة أن تكون فتنة من دس هذه الخبيثة يقع فيها ، ثم ذهب للدير وطلب مقابلة لندل فى حجرة خاصة فأذن له .

لذريق : يا لندل ما الذى جعلك تفضلين الدير على حياة القصور الزاهية .

لندل : زهدت فى الدنيا ورغبت فى حياة النسك .

لذريق : وما الذى زهدك فى الدنيا ، وقد كنت فتاة جميلة ولطالما تمنيت الزواج وكان معظم النبلاء يتمنون الزواج منك .

لندل : إن المرأة أو الرجل لا تثبت عواطفهما على حالة واحدة بل تتغير بتغير الحوادث والأيام .

لذريق : إصدقينى ليس هذا بيت القصيد ؟

لندل : وما الذى تعنى ؟

لذريق : صارحينى فأنا شقيقك ويمكننى أن أنتقم لك ممن يكون قد غدر بك فى ريعان الصبا فاحتملت هذه الآلام طوال هذه السنين .

لندل : لا أفكر فى شئ مما تقول .

لذريق : ما جربت عليك كذباً وكثيراً ما تقع الفتيات فى شراك الرجال ، والمرأة ضعيفة والرجل المذنب ، فأصدقينى .

لندل : ليس لدى ما أقوله .

لذريق : لقد علمت كل شئ ، علمت أن جوليان استخف بشرفى وغدر بك أليس كذلك ؟

لندل : لم يغدر بى .

لذريق : إنى لا زلت أذكر أنه أخبرنى يوماً ، أنه راغب فى خطبتك وأنه سيفاتح الملك فى ذلك ، وبعد قليل علمت أنه تزوج من نورا وتركك ، أذكر ذلك جيداً فهو له غدر بك وخاننا ؟

لنــدل : لم يك خائنا وكان يود ذلك ، لولا أنه أرغم على الزواج من نورا .

لذريق : هل يمكنك أن تعيدى علىّ ذكر هذه الظروف لأقدر موقفه وشرفه ؟

لندل : سامون هو الذى مانع فى ذلك .

لذريق : ليس هذا كافيا .

لندل : ومانع الملك أيضا .

لذريق : على فرض ذلك كان يمكنك الزواج من غيره ، وهناك كان كثير من النبلاء يتمنون يدك .

لندل : ولكنى بعد فقده لم أرغب فى غيره .

لذريق : هناك أسباب أخرى فأفصحى .

لندل : هذا ما عندى .

لذريق : لقد أخبرتنى مريسيا .

لندل : وما الذى أخبرتك به مريسيا ؟

لذريق : أخبرتنى أنه غدر بك ، والقسيس أخبرها بكل شئ .

لندل : ولكن أنا التى أرغمته على التزوج من نورا حتى لا يجرد من حقوقه وكان يتمنى أن يفقد حقوقه ولا يفقدنى .

لذريق : (وقد أخذته الحمية) إنه نذل جبان وحقيقة لقد خدعت فى صداقته طول حياتى وسيذوق وبال أمره ، لقد ظن هذا

الشرير أن هـــذا العمل الذى دنس شرفى دفنتـه الأيام ، ولكن الجريمة تبقى معلقـة فى أذيال الانسان لا يفر منها طول حياته ، ولا يغسل عار مثل هــذه الجريمة إلا سفك الدماء ، وسأنتقم لشرفى من بيته وعرضه كما استهان بعرضى وشرفى ، ألم يذكر أنك أخت لذريق الشجاع يوم أقدم على ذلك .

لندل : يا لذريق إنه يحبك ويخلص إليك وكفى به ما قاساه ولولا عـداوة سامون وإرغام الملك ما عــرّض نفسه لانتقامك أستحلفك بالقربى ألاّ تعاديه فانى أحبه .

لذريق : إنك لبغى لاتستحقين أن تكونى أخت لذريق وكفى منك خيانة ودنساً أيتها الشقية الآثمة الوقحة .

ثم خرج من الدير مغضبا تصبغ وجهه حمرة الدم الذى يغلى فى عروقـه ، مصراً على الانتقام ، وأحست لنـدل من لذريق أنه سيفتك بها لا محالة ، وعلمت أن حقـد مريسيا ظــل فى قلبها طوال هـذه السنين ، فان بقيت فى الدير عرضت نفسها للهلاك ، وهى لا زالت تحب جوليان ، وفية لعهـده برغم ما قاست فى سبيله من آلام فان تركته على غفلة من عداوة لذريق قتــل . فعولت على ترك الدير والمهاجرة إلى سبتـه ، فرحلت من فورهـا مستخفية ، حـتى وصلت إلى قصر جوليـان وقصت عليه أخبار مريسيا ولذريق ليأخذ حـذره وبقيت فى قصره ، ولـكنها عكفت على العبادة والنسك كعادتها التى ألفتهـا فى

الدير ، وتغيرت أحوالها فأصبحت امرأة أخرى غير لندل الأولى ، فقد أخذت الرهبانية من نفسها كل مأخذ ، وكانت كل يوم تعطى المواعظ لجوليان كأنها قديسة من السماء ، إذ كانت تقول له ، يا جوليان إن كنت أخطأت فكفر عن خطيئتك ، إن كنت أسأت إلى أحد من الناس فاستغفر لاساءتك ، وارجع الحقوق لأهلها ، يا جوليان احترس لنفسك وخذ مؤونتك لدار الدينونة فالعمر خيال ، فأثرت مواعظها فى نفس جوليان ، لأنها كانت تتكلم بنفس قوية ، وإيمان عظيم ، فعاهدها جوليان على أنه سيرد الحقوق إلى أهلها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأنه سيعيش ما بقى من عمره نصيراً للفضيلة وأعمال البر .

لذريق ومريسيا

خرج لذريق من الدير بعد مقابلة لندل وقد أعمى الغضب بصيرته وأضل عقله وهداه ، ولا همّ له إلا الانتقام ، واستحالت صداقته الحميمة لجوليان بغضا شديدا ، وشعر أن مريسيا لطمته لطمة أصابت عزة نفسه فمزقت شرفه وهلهلت عرضه ، ومن هذه الساعة التى تأكد فيها من لندل صدق قول مريسيا فى جوليان ، صار لذريق شخصا آخر فى أخلاقه ، فكأن هذه الساعة أماتت رجلا فاضلا وفيا ، وأحيت رجلا شريرا عتيا ، وكأن الغيرة والحمية للشرف والعرض ،

تقوده لمحاربة الشرف والفضيلة والعرض ، فأركس فى الخسة والنذالة وأضله الشيطان ، فلم يعد يفكر إلا فى الانتقام من جوليان ، ومن بيت جوليان وعرض جوليان ولو هلكت الأمة بأسرها ، وفكر فى أنه لا يمكنه الانتقام منه مع شدة نفوذه وخطره إلاّ إذا انضمت اليه مريسيا تلك الداهية اللعوب ، ورأى أن الفرصة مواتية فيجب أن يقتنصها فوراً ولا يبالى بعرض ولا شرف ، فلا يكفيه نساء هذا البيت كاهن فى عرضه المنتهك فى لندل ، فذهب إلى مريسيا وقابلها .

مريسيا : تأكدت من صدق أخبارى .

لذريق : نعم .

مريسيا : وهل ترضى الآن أن انتقم لك منه .

لذريق : إن هذا ماعولت عليه .

مريسيا : وهل رسمت لنفسك خطة .

لذريق : سأرسم خطتى على مهل حتى يكون انتقامى منه مروعا .

مريسيا : لدى خطة إن قبلتها أصبت مقتله ، وسأعينك عليها حتى تعلم أنى أخلص لك كل الاخلاص ، وأنى أحبك من قلبى .

لذريق : وأنا أعاهدك على إتمامها .

مريسيا : كان الملك والد زوجى طول أيامه غير راض عن جوليان ، وتحدث أمامى وأمام غيطشة يوما من الأيام أنه يشك فى بنوته ، وكتب لى بخطه قبل وفاته اعترافا استعمله ضده إذا بدا له

أن يهاجم أخاه يوما ما ، وسأوقع من الملك غيطشة قراراً يعترف فيه بأنه ليس أخاله ، ويحرمه من الانتساب إلى أسرته ، وما عليك إلا أن تذيعه فى سائر بلاد المملكة وهذا أكبر انتقام .

لذريق : علىّ ذلك يا حبيبتى العزيزة .

مريسيا : أحقاً يا لذريق تحبنى ؟

لذريق : أحبك من كل قلبى ، ويسرنى أن تصرحى لى بحبك فانى صبرت كثيراً .

مريسيا : إنك لابد تشعر بما كنت أعانيه من تلهفى عليك كل وقت ، وأنا أعبدك وأضحى بكل شئ فى سبيلك ولكن ما منعنى من التصريح إلاّ إخلاصك لجوليان وأنا أمقته .

لذريق : لقد أصبحت أمقته من قلبى ، وأتمنى اليوم الذى أتمكن فيه من الانتقام .

مريسيا : الآن تآلفت أرواحنا واتفقت مشاعرنا وأنا لك يا حبيب الروح .

نصبت مريسيا شراكها للذريق من هذا اليوم ، فرضى أن ينام من هذه الليلة على سرير الدنس وتجرعا كأس الرذيلة من يد الشيطان سوداء قاتمة ، وأترعها منها حتى امتزجت بدمائها ، وأصبحا من ندمائه ، فسول لهما قتل الملك غيطشة ، فتآمرا على قتله حتى يخلو لهما الجو منه ، وسهل ذلك على لذريق ضعف شأن غيطشة ،

فقتلاه خنقاً إذ بات لذريق تحت سريره تستره خيانة مريسيا، حتى إذا ما دجا الليل قامت مريسيا لحبست أنفاسه، وخرج لذريق من مخبئه وأتم خنقه، وهكذا استباح لنفسه قتل مليكه فى سبيل الانتقام لعرضه، فأصبح خواناً أثيماً. وخلا الجو وطابت له معاشرة مريسيا فكانت شيطانة فى حجر شيطان، يعينها وتعينه على الاثم والعدوان، ثم نادى بنفسه ملكاً على البلاد، فهبت المملكة في وجهه من أقصاها إلى أقصاها، وشبت الحرب الأهلية واندلع لهيبها، وجهز له معظم النبلاء وأصحاب الأقطاع جيوشهم، ولكن لذريق كان داهيه شجاعا وكان قد اتخذ للأمر عدته وجهز جيشاً عتيداً، وتقابل الجيشان، واقتتلا قتالاً عنيفاً قتل فيه كثير من النبلاء، وكان من بينهم سامون، وكانوا على أبواب النصر إلا أن لذريق تغلب فى النهاية، وقام جوليان بنصيبه فى هذه الحرب وأبلى بلاءً شديداً ضد لذريق، عسى أن يستخلص منه ملكهم الذى اغتصبه، ولكن لم يتمكن أحدهما من الانتصار على صاحبه، وملت الجيوش استمرار الحرب فتهادنا، إلا أن هذا لم يطفىء نار الحرب الأهلية، فكلما أخمدت فى جهة من الجهات اشتعلت فى ناحية أخرى بالرغم من أن لذريق حشر فنادى وقال أنا ربكم الأعلى، فأوقع الرعب فى القلوب من شدة بطشه وفظيع قسوته، ومازال كذلك حتى صار طاغية أسبانيا، يستضعف أهلها ويسومهم سوء العذاب، وأحل أهلها

دار البوار ، لا يرهب الله ولا يستحى من الناس ، وغدا لا يستل سخيمة نفسه إلا سفك الدماء وهتك الأعراض ، ولم يشف غليله كل ذلك فى سبيل الانتقام من جوليان وأسرة جوليان ، ولم ينج من انتقامه أحد حتى صديقته الخائنة مريسيا ، إذ أصبح يراها امرأة غادرة لا يستريح إليها ، فلم يمض إلا بضع سنين حتى تنكر وقلب لها ظهر المجن ، وبينما هو سائر فى القصر يوما إذا به يرى ولداً من أبناء غيطشة حدثا لم يؤد له واجب التعظيم ، فدخل على مريسيا وقال لها ، إنما نحن الآن نربى قاتلينا ، فقالت له أنا أكفيك أمرهم — لتستبقى رضاه — والواقع أن القلب يغلظ وينحط صاحبه عن درجة الانسان والحيوان إذا كان غذاؤه الدائم من شجرة الخيانة وجيف الأجرام ، فطردتهم صغاراً إلا بنتاً صغيرة ، وكأنها لم تكن أما بل أدنى من حية رقطاء ، فهاموا على وجوههم فى البلاد ، ومع ذلك لم تنج من عداوة لذريق واستمر يعاشرها أسوأ معاشرة ، ويزدريها ويحوطها برقابة شديدة ويغلظ لها القول حتى أصبحت فى سجن لا يطاق ، وهكذا انقلب لذريق من رجل شجاع شريف النفس إلى رجل خائن شرس الأخلاق ، فانظر كيف بدأ وكيف تحول فلبئس ما انتهى إليه لذريق من خسيس الطباع .

الفصل السابع

برلى — سلفيا

تركنا برلى مسافراً إلى برشلونه بعد الميلاد وفى صحبته سلفيا والطفل وكانت رحلة موفقة لم يحصل فيها ما يكدر إلاّ أن صحة الطفل تأثرت من وعثاء السفر ووصلت الراحلة إلى بر السلامة ، ونزلت سلفيا فى بيت برلى الذى يقع فى طرف ناء من أطراف المدينه ، وكان قد أعد لها به طبقة خاصة مؤثثة أثاثاً قليلاً إلاّ أنه غاية فى سلامة الذوق ، وكان كل ما فى المنزل يدل على أن صاحبه رجل اقتصادى يحرص على المال ، ولا يضيع وقتاً فى غير منفعة ، ويستفيد من كل ما هو طبيعى ، معتدل تمام الاعتدال فى جميع نفقاته ، ولم يكن بهذا المنزل من الخدم سوى البواب والبستانى وخادمين ، فلما اطمأنت سلفيا طابت لها الاقامة واستراحت نفسها لهذا الجو الهادئ ، بعد حياة حافلة بالحوادث والمفاجآت وبعد ما قاست من حزن وهم وفقر ، فقد أصبحت فى رفاغة من العيش آمنة مطمئنة فى ضيافة برلى ، أما طفلها فقد شفى وتحسنت صحته ونما وترعرع .

وكان برلى منصرفاً عن سلفيا وعن الطفل إلى تجارته ، إلاّ أنه كان يؤدى حاجاتهما على الوجه الأكمل ، دائب العمل كثير السفر أذ ولع بالتجارة من حداثته ، فأثرى منها بعد فقر فأحب المال حبا

جما ، يغنيه عن كل حب ويصرفه عن كل متاع ، فنسى المرأة وعف عن الزواج ، وهو لكثرة ما يسمع عن النساء فى البلاد التى يمر بها أثناء رحلاته التجارية ، صار لا يثق بامرأة ويخاف الدنو منهن ، ولكنه بمرور الأيام بدأ يعطف على سلفيا ، إذ يراها وحيدة مع طفلها ، وكانت تخاف الخروج إلى خارج الدار حرصاً على نفسها وعلى الطفل من عيون الأشرار ، وخوفاً من الجواسيس الذين يتحسسون الأخبار فى كل مكان ، فصار برلى يتردد عليها ليؤانسها قليلا من الوقت حتى لا تقتلها الوحدة ، فرأى فى سلفيا امرأة متحشمة ذات أدب ووقار تحمل أى انسان على احترامها ، واستشرف من أخلاقها الطهر والعفاف ورقة الشمائل ، وبدأ يشعر من نفسه بميل إلى كثرة زيارتها ، والتودد إليها ، وهو لا يستطيع تعليل هذا الميل ، لأنه لم يمارس هوى امرأة من قبل ، وليس فى نيته أن يتذوق هذا العمل ، يصرفه عن نفسه كلما خالط قلبه ، وعلل هذا الميل فى نفسه بأنه عاطفة احترام ورحمة ، لهذه المرأة التى يدل مظهرها ومخبرها على أنها امرأة فاضلة وقورة حيية برغم جمالها وفتنتها ، ولكنه مع الأيام رأى العاطفة المتولدة من هذه البواعث تنبت وتتغذى من عوامل تقديره لأخلاقها وفضلها ، حتى نمت وتطورت من تمثيل الصفات إلى حب الذات ، وكان مع ذلك لا يسمح لنفسه أن يسألها عن ماضيها أو يتبسط معها فى حديث خارج عن شئون البيت والطفل

الذى يتعهدانه بالتربيـــة وكان سبب تعارفهما ، وكانت سلفيا ذات صمت ورزانه برغم طلاقـة لسانهـا ، ولم تكن ثرثارة كالنساء فلم تتكلم يوما عن نفسها أو عن ماضيها ، وقد ذاقت مرارة الحياة ، وهى لا تحب إلا أن تعيش هادئة وزهدت فى الزواج ، ولكن برلى لم يقو على عناد عاطفته التى إزدادت مع الأيام ، وتمكن الحب من قلبه الخالى ، وانتهت به إليه طبيعة الانسان واجترأ على سؤالها .

برلى : هل تسمح لى سلفيا العزيزة أن أسألها عن ماضيها ، فقد أخبرنى الأمير جوليان أن لك تاريخاً حافلاً بالحوادث وأراك حزينة على الدوام فعسى أن أخفف ما بك .

سلفيا : إنى من يوم أن حللت بدارك وأنا أشعر بالهـــدوء والطمأنينة وأحس الغبطة لما أجده من عطفك ورعايتك ولذلك أشكرك شكراً يعجز عنه بيانى ، ولم أعد بعد ذلك أفكر فيما مضى .

برلى : أعتذر لتطفلى عليك ولا أقصد اثارة أشجانك .

سلفيا : عفواً ياسيد برلى ، لم أقصد ذلك إنما قصدت أن أعبر لك عن شكرى وامتنانى ، وأنك فوق ماسمعت من الأمير جوليان ومادمت تود سماع قصتى فهـأنذا أقصها عليك عن طيب خاطر ، ثم بدأت تقص :

« كان والدى صاحب إقطاعية بنى عليه سامون ، فسلب ملكه وماله ، ثم غدر به وقتله ، فحزنت لفقـــده ، إذ ماتت أمى قبله ، ولا

أعرف لى قريباً بعدهما ، وكنت إذ ذاك لم أبلغ الحادية عشرة من عمرى ، أربى فى دار الملك مع بنات الأشراف ، فأصبحت مهيضة الجناح بينهن ، وتغيرت نظراتهن إلىّ من اكبار الأثرياء إلى احتقار الأيتام الفقراء ، فصرت وحيدة عديمة الأهل بينهن ، ولم أجد أحداً يعطف علىّ غير الأمير جوليان ، يحدب علىّ ويعنى بشئونى ، ولكن لسوء حظى اختار الملك سامون وزيراً فكنت لا أطيق رؤيته ، وظهر لى من عينيه أنه سيغدر بى حتى لا يرى على وجه الأرض مطالباً بدم أبى ، ولما بلغت السادسة عشرة من عمرى ، كشف الأمير جوليان مؤامرة على قتلى ، وأراد الله نجاتى على يديه ومن هذا الوقت رأيت بقائى فى القصر لا يدع فى قلبى طمأنينة ، فكاشفت الأمير ففكر فى زواجى من أحد النبلاء ، ولكن لم يرض بى أحد بعد فقرى وذهاب جاهى ، ولم أجد سبيلا لاتقاء سامون إلا الاختفاء عن عينيه فخرجت من القصر ، ثم طلب يدى فتى عريق النسب أصابه ما أصابنى ، فعز علىّ أن أرفض يده لأنه فقير معدم ، وجمع قلبى إلى قلبه سيل الألم ، فجهزنى له الأمير ، ووقفت حياتى على إسعاده حتى أتمكن من مداواة جروح قلبه ، وتوفير اسباب راحته ، ورضيت منه بشظف العيش إلا ما كان يرفه عنا مما يجود به الأمير علينا ، وما كان كل ذلك ليغنى من أمر الله شيئاً ، فمن لهذا المسكين أن يطالب سامون بأملاك أبى ، زهدته ونصحت إليه ،

فعافلني وذهب لمطالبته فوعده ، فما لبثت أن رأيته مضرجا بدمه فى فناء المنزل ، وكنت قد وضعت له غلاما منـذ ثلاثة أسابيع ، وكأنه لم يرض البقاء مع أبيه . فمات لشهر من وضعه ، اعترانى الوهم ، فكنت أرى في منامى أن سامون يقتلنى ، وأتخيل في كل وقت أنه يداهمني ، شكوت ما أعانيه للأمير جوليان فرق لحالى ، وبعد قليـل جاءنى وأسر ألى أمرا لن أبوح به حتى مماتي ، ودعاني لتربية هـــذا الطفل تحت رعايتـك فالتقيت بك فى المكان الذى قدمني إليك فيه الأمـــير جوليان ، ولا زلت أتوجس خيفة من سامون ، وهذا ما يدعوني إلى كتمان أمرى .

فتأثر برلى من قصتها ورق لها ، فأصبح قلبـه يفيض عليها رحمة وحناناً وازداد لها حباً ، ثم قال لها :

برلى : أتمـنى أن تطمئنى فى دارى وتحت حمايتى ، وأنا أفـديك بروحى وحياتى .

سلفيا : شكراً لك على نبلك يا سيدى وأنا لا أطمئن إلى سامون لأنه رجل خطـر ، والنـاس يتقربون إلى ذوى النفـوذ والخطـر ، يأكلون لحم الضعفاء ويعينونهم على أكل أمـــوال النـاس بالباطل وسفـك دمائهم ، وأنا الآن لا أخاف عـلى نفسى ، بل أخاف على هذا الطفل وعلى من يتعرض لحمايتـه ، وأخشى أن أكون نحساً على من أتصل بهم ، فياويل أسبانيا من الظلم ، أخاف أن يفنيها ويذيلها .

برلى : لا تخافى ولا تحزنى وقرى عيناً ، قـــد قيض لك ربك من يحميك ويسهر عليك وعلى طفلك ، وانظرى الى المستقبل نظرة باسمة ملؤها الأمل ، وإن كنت مؤمنة فثقى بالله ولا تتشاءمى ، ولا تظنى بالله الظنون .

سلفيا : أرجو أن أكون مؤمنة ، ولولا ما صادفنى ما تتطيرت ، فعسى الله أن يهبنى طمأنينة وحياة طيبة ويبدل سوء حظى سعداً .

برلى : يا عزيزتى سلفيا إعلمى أنه لا تتربى مشاعرنا واحساساتنا إلا بتذوق حلاوة النعم ومرارة الألم ، ولا تكثر معارفنا إلا بوفرة الحوادث ، وحياة بدون ذلك حياة خاملة كحياة الحيوان وما دونه من الجمادات ، وكثير من الناس يصادفهم فى حياتهم أكثر مما أصابك فلم يفقدوا أملهم واعتمدوا على الله ، فأعطاهم فوق ما كانوا يرجون (إن ربى لطيف لما يشاء) فاتركى فكرة النحس .

سلفيا : أنت رجل مؤمن يا سيد برلى ، وأتمنى أن يكون إيمانى كايمانك .

برلى : مادمت لم تأثمى يوما ما فستكونين كذلك .

سلفيا : لو أثمت يوما ما صبرت على ما لقيت ، ولم يهون علىّ ما أصابنى إلا ما أعلمه من طهارة نفسى التى أعتز بها طول حياتى .

برلى : سأتحدث اليك عن نفسى قليلا إذا سمحت يا عزيزتى .

سلفيا : تفضل يا سيدى فان هذا مما يسرنى .

برلى : تركنى أبواى شاباً يافعاً لا ميراث له ، فكفلت نفسى أكد طول يومى لقاء أجر زهيد يمكننى من شراء ما أتبلغ به ، وصبرت وثابرت وكنت أقتصد القليل التافه ، الى أن جمعت مبلغاً يسيراً بعد أمد طويل ، لم أيأس فيه ولم أمل . اتجرت فلاح لى بارق النجاح ، كثر مالى ، وزادت ثروتى ، ونشطت ، فلازمنى التوفيق وجبت البلاد ، وتعرفت بالنبلاء والعظماء ، ولم أنل ذلك كله الا بعدم اليأس والثقة بالله ، ومن يوم أن عركت الحياة لا أحب التشاؤم ولا أعتقد فيه ، وجعلت الفضيلة ردائى الذى أتزين به بين الناس .

سلفيا : ياسيد برلى أعاهدك على أن أترك التشاؤم ، وأشكرك على هذه المواعظ الجميلة ، وتسليتى بهذا الحديث المملوء بالطهارة والايمان .

برلى : أتسمحين بتطفلى عليك مرة ثانية فأسألك ، ألا تفكرين فى الزواج ؟

سلفيا : لقد فقدت أحبابي وتزوجت ففقدت زوجي وطفلى فأحب ألا أجعل لأحد من الناس علاقة قوية بقلبي ، اذا انتزعت منه خلعت هنائى ، وأين الرجل الذى لا ينظر إلىّ كزهرة ذابلة تركها صاحبها بعد أن استنشق أول عبيرها ، فمثل هذا لا يعنى بزهرته عناية صاحبها الأول لذلك لا أفكر فى الزواج .

برلى : (مبتسما) فان وجدت مثل هذا الرجل ؟

سلفيا : لا أظن ذلك ياسيدى برلى ولا أبحث عنه .

برلى : ياعزيزتى سلفيا مكثت طول عمرى وأنا أحب الحرية والعيش الطليق ولا أحب أن يشاركنى أحد فى شخصياتى، ويفرض علىّ شيئاً مهما كان واجباً ، أو يؤاخذنى عن شئ ويحاسبنى على غدواتى وروحاتى ، وكنت أعمل لذلك ألف حساب ، فلم أطاوع نفسى فى طلب الزواج ، ولكنى أخيراً اعترانى سأم من هذه الحالة ، وكرهت الوحدة فأحببت امرأة حباً شديداً وارتضيتها أن تكون شريكة لى .

سلفيا : إنى أغبط المرأة التى اخترتها لأنك رجل طيب القلب حسن العشرة تقوم بواجباتك برغم ما تتهم به نفسك ، فيالها من امرأة سعيدة ولا بد أن تكون من النبيلات ذات ثروة واسعة تضيفها إلى ثروتك .

برلى : كلا ، إنها امرأة فقيرة إلا من عقلها وجمالها وطهارتها ولا يقال لمثل هذه فقيرة ، وما حاجتى بامرأة تطالبنى بانفاق ثروتى ثمناً لسمعة أهلها وتعيش معى متكبرة مسرفة ، فأضيع من ثروتى وهناءتى أكثر مما قد أصيب من مالها لو تحقق الأمل ، مع أن عقل المرأة وتدبيرها وجمالها هو الثروة التى لا تدانى وليس وراءها للرجل العاقل مطمع .

سلفيا : هل تسمح لى يا سيدى برلى بشرف التعارف إليها لأهنئها بك وأؤدى بعض جميلك علىّ .

برلى : أظن أنك تعرفينها حق المعرفة .

سلفيا : لم أتعرف الى سيدة منذ حللت هنا .

برلى : ولكنها معك على الدوام .

سلفيا : أعتذر لك عن الجافى .

برلى : لا تظنى أنى أبخل عليك بمعرفتها .

سلفيا : إذن من هى ؟

برلى : هى .... أنت فهل تقبلينني ؟

أطرقت سلفيا حياءً .

برلى : ما جوابك يا عزيزتى ؟

سلفيا : طبعاً أكون سعيدة بزواجى منك وأنّى لى هذا الشرف .

برلى : إذن سأعقد عليك غداً ، جعله الله قراناً مباركاً .

(ثم يتصافحان وقد اغرورقت عيناهما بالدمع من السرور والفرح ، وتركها برلى وانصرف) .

فما كاد يخرج برلى حتى هبت عليها رياح الفرح تجرى بمنتهى القوة فاقتلعت شجرة الأحزان من قلبها واهتزت سلفيا طرباً فقد وجدت بعد فقد ، وأينعت بعد ذبول ، وأمطرتها السماء سعادة ، فلا تكاد تصدق . ولم تجد من يفرح لها لتنبئه بهذا الحظ الموفور غير طفلها ، فأخذت تقبله بحرارة وتداعبه وتقول إن السعود إذا عظم بدد النحس ولو عظم ، إن سعودك بدد نحسى ، ولا يصح للذى لم تفارقه

الحياة أن يقتل الأمل باليأس .

ثم تناجى برلى ، حقاً إنك لرجل نبيل يا برلى ، سأكون لك خادماً قبل أن أكون لك زوجاً ، وأعينك على بلوغ أمانيك ولا احملك تعانى فى سبيلى مشقة ولا اسألك عن شئ تحب ألا اسألك فيه ، حتى أكون كما تحب وترضى ، لأحافظ على مودتك ، وأربط صلتى بك برباط متين .

الفصل الثامن

الطفـــل المشرد

نما (درمس) وترعرع فى كنف برلى ، ورعاية سلفيا التي كانت له نعم الأم لخير طفـــل ، إذ كانت تنشئه على الأخلاق العاليـة ، فشب فى جو هادئ بعيداً عن قرناء السوء ، متعوداً النظافة والنظام وتعهده برلى بالتعليم النافع فنمت غرائزه وبدأت تظهـــر مواهبه ، ولكنه عاش لا يعلم من امره شيئاً إلا أنه ابن برلى وسلفيا ، فنشأ على حبهما ، ولم تكد تبلغ سنه الثامنة عشرة حتى نبه عقله وسما شعوره ، فأصبح يحس بما فى الحياة من مباهج ، ويشعر بما فيها من آلام ، وكان يحضر إلى برلى وسلفيا يشكو لهما ما يراه سائداً فى أسبانيا من الظلم ، وكان يتألم عندما يرى الناس يسقطون من الجوع ، وكان يحضر محاكم أصحاب الأقطاع ، وهى تحكم على الناس أحكاماً فى

منتهى الجور والعسف ، فيثور فى نفسه على هـذا الحكم السائد فيها ، ويتمنى لو أنه كان قادراً على هدمه ، إلى أن حضر يوماً إعدام صديق له بتهمة لا أساس لها ، مع أنهم حرمـوه حق الدفاع عن نفسه ، وكان يعرفه شخصا هادئا فاضلا ، فأثر هـــذا الحادث فى نفسه أيما تأثير ، وصمم من هذا اليـوم على أن يجاهد فى سبيل إنقاذ أسبانيا من ظـلم هؤلاء العتاة المتجـــبرين ، وصارح برلى بمـا فى نفسه ، فنصح له ألا يبدى هـذه الآراء أمام أحـد من الناس ، حتى لا يعـرض نفسه ويعرض برلى نفسه لانتقامهم ، وإلى مالا تحمد عقباه ، فـكبت غيظه فى نفسه إلى حـين تحت ضغط برلى ، ولـكنه كان قـوى الأرادة من صغره عنيفـاً فى ثورته يعتز بنفسه ، فبـــدأ يدعو الناس إلى الثـورة سراً ويطلب إليهم ترك الجـبن وعدم الصبر على هذه المظـالم ، وخطر له يوما من الأيام أن يجاهر بهذه المبادئ ، فقام فى أحد الميادين خطيبا على رؤوس الأشهاد فاجتمع إليـه خلق كثير فجاءته شرطة حاكم الأقطاعية تمنعه الـكلام فرفض وسب الحاكم ، فصفدوه فى الأغلال واقتـادوه إليـه ، فسأله عن شأنه . فمـز عليه أن يدعـو النـاس إلى الشجاعة ثم يجـبن فى موقفه فصارحه ، فسأل عن أهله ، ثم جئ ببرلى فلمـا مثل بين يديه ، اتهم برلى بالاجـــرام لأنه ربَّى شريراً مجرماً لا يحترم سادته النبلاء ، وحكم عليهما بمصادرة أملاكهما وأن يغادرا أسبانيا فى خلال أربعـة شهور ، وحكم على درمس بالقتل إن عارض

أو ظهر منه أى مجاهــــرة بآرائه ، أو حاول أن يخطب النـاس مرة أخرى ، وأفـرج عنهما ، ولكن درمس مع ما أصابه بسبب رعونته وتسرعه هــذا حتى ضاعت ثروة برلى فى سبيـله ، كان مصراً على الاحتجاج ولو أدى ذلك إلى قتله ، لولا أنه كان يخاف على برلى ، وكان يرى أن الموت أفضل من الحياة فى هــــذا الجو القاتم ، وبعد أن أظلت السعادة برلى زمنا طويلا ، بدأت تتنكر له الأيام ولم يعد له جاه يحميه ، بعد أن أصبحت البـــلاد فوضى ، وضاعت ثروته وصودرت أملاكه ، وما لبث أن مرضت سلفيا مرضاً شديداً فظل يسهر عليها ويمرضها ، والمرض يزداد عليها يوما بعد يوم ، وكلما ازداد عليها المرض ازداد عليها حزنا وألما ، إذ كان يحبها كل الحب ويرى أنها كانت ثمرة حياته الماضية كلها ، وآلمــــه أنها لم تنجب له ولداً أو فتاة تخلد ذكراها ، وكان برلى كلما اشتدت وطأة المرض عليها يبكى بكاء الثكلى ، إذ كان يعتقـــد أن وفاءها وطهرها وجمالها نادر فى النساء ، فكان أوفى رجل لأوفى امرأة ، فلما حضرتها الوفاة قالت يا برلى لو مت فان حبى لك واعترافى بفضلك لن يموت ، وإن أردت أن تبر بى فانظر إلى درمس نظرة العطف والبر التى تعودها منك كأب عطوف رحيم طول حياته ، واغفر له ما كان منه ولا تأس على ما فاتك من ثروتك ، وأذكرك بأيمانك ويقينك بالله الذى لمسته مستقراً فى قلبك من يوم أن تزوجنا وأدعو الله أن يجزيك عنا

خير الجزاء . ومالت إلى درمس تكلمه : يادرمس لم يكن لى أمنية فى الحياة إلا أن أراك رجلاً مكتمل الرجولة فلا ترجع عن مبادئك الطاهرة ، وأوصيك بأن تذكر أسبانيا المعذبة كل صباح ومساء حتى ينقذها الله من نير الظلم الذى حاق بأهلها من حكم هؤلاء الطغاة المتجبرين ، ولا يثنيك عن ذلك ما حاق بك وبأبيك برلى من عنت واضطهاد ، ولكنى أحذرك أن تقوم بأمر قبل إحكام تدبيره وإعداد عدته فتلقى بنفسك إلى التهلكة ، وتزل قدمك بعد ثبوتها ، ولا تنزل منزلا حتى تعلم أنه مأمنك ، ولا تثق بقوم حتى تخبر ظاهرهم وباطنهم ، وتدبر العواقب قريبها وبعيدها ، ولا تكن متردداً فى عمل وضح لك السداد فيه ، فان ذلك يورث الجبن وركود الهمة ، ولا تقبل كسب يوم يضيع عليك ربح مستقبلك ، أو يمس طهر باطنك ، ولا تركن لأهل الظلم ولو لاح لك منهم جاه ومغنم ، يادرمس لقد أجزل لك برلى العطاء فكافئه ببرك به ، واذكر أنه قد هانت عليه ثروته فى سبيلك ، وحافظ على الصليب واربطه إلى عنقك ، وعض عليه بالنواجذ فانه لا يصيبك مكروه مادمت محافظا عليه ، وإن لك أمراً كنت أود أن أبوح لك بسره .... ثم أخذتها سكرة من سكرات الموت ، وغمرة من غمراته ، منعتها الكلام ، وكلما أفاقت أعياها الكلام فتكتفى بأن تزود نفسها وتملأ عينيها وقلبها برؤيتهما ساعة الوداع الأخيرة حتى أطبقت أجفانها ، وفاضت روحها ....

ولم يطب لبرلى المقام فى أسبانيا ، إذ لم تعد دار سكن بعد أن سامها حكامها صنوف العذاب وألوان الاذى والظلم ، وهجرها معظم سكانها حتى أقفرت ، وخصوصاً بعد موت سلفيا المحبوبة التى ضاقت عليه الأرض بما رحبت بعد فقدها ، وكذلك انقطعت أخبار جوليان من مدة طويلة ، ولم يعد قادراً على الاتصال به ، فصمم على المهاجرة وتنفيذ أمر النفى طائعاً مختاراً ، فباع ما بقى له من متاع بأبخس الأثمان ، ورحل إلى بلاد البربر (مراكش) التى كان يذهب إليها فى تجارته وصحبه درمس ، ولكن مرور الأيام لم يخفف من لوعته على سلفيا بل ظل يناجيها حتى انهدت قواه فأصبح سقيما شاحب الوجه وأصابه خبل فى عقله ، فصار يهذى ويسير هائماً على وجهه ينادى : سلفيا !! سلفيا !! خذينى معك !! لا أطيق البقاء بعدك ! وأحياناً يقول : مالى ! مالى !! هاهو ذا غريمى ! الذى سلبنى مالى ! أقتلوه !! سأظل أتبعك فلا تفلت منى أيها اللعين !. وكان درمس يرق لحاله ويواسيه ، ولما نفذ ما كان معهما من المال الذى جاءا به اضطر درمس إلى أن يشتغل راعيا لقاء أجر زهيد كان ينفقه على برلى وعلى نفسه وأصبحا فى شظف من العيش بعد الرفاغة واليسر ، واستمر درمس يعول برلى وقتا طويلا حتى وافاه الأجل المحتوم ، فحزن درمس وبكاه بدل الدمع دما ، وأمسى وحيداً فى بلاد البربر حزيناً ، وكلما فكر فى الساعات الرهيبة التى حضرها عند وفاة سلفيا وعند

وفاة برلى ، إنهمر الدمع من عينيه إنهماراً ، وتصور كلاً منهما فى خياله كما كان على سرير الموت ، فلم تبرح ذهنه هذه الصورة المحزنة وبقيت أمامه ثابتة كوقائع الحياة التى لا تتغير ، فنظر إلى الحياة نظرة جديدة ، وتعمق فى تفكيره وصار يسائل نفسه ، أين من كانا يعيشان معي فى هذه الدنيا غاديين رائحين فى فرح وغبطة وطول أمل ، كيف طواهما الموت ؟ أين سلفيا التى طالما رأيتها تغدو وتروح ناضرة باسمة ؟ لم أعد أسمع صوتها ينادينى ، أين ذلك الانسان الذى كان معى يأكل ويشرب ، ويحرص على جمع المال كأنه يعيش إلى الأبد ، نعم ، هجع وعجز عن الحركة ، وفقد الأمل الذى عاش به ، وهو لا يفكر فى هذه الساعة التى رأيته يحتضر فيها أمامى ، ويغلبه الموت ولا ينصره الأمل ، نعم ، صمت ولم أعد أسمع منه كلاما ولا أحس له ركزاً ، وفارق هذه الحياة ، واستغنى عن حاجاتها وشئونها ، وسكن فلم يعد يحس ويتألم ، نعم ذهب واستراح ، ما أشقى ابن آدم في هذه الدنيا ، يتعلم وَيُعَلِّم ، وَيُرَبِّى لِـيُرَبِّي غيره ، ويبنى ليسكن من يليه ، ويكد ويشقى ، ويجمع ويضيع ، ويصح ويمرض ، ويفرح ويترح ، ويسير ويُبدأ إلى نهايته كأن لم يعمر فى الدنيا ، ويلك يا ابن آدم تحرص كثيراً على ما يعييك جمعه ، ثم لا تتمكن من حمله معك إلى دار الأبدية ، ما أغناك يا ابن آدم عن كثير مما تعانى ، وما أشقاك إن طلبت ما ليس لك ، وظلمت فيه غيرك ونفسك ،

وكان درمس ينظر إلى الناس وهم فى روحاتهم وغدواتهم فيحسبهم سكارى بنشوة الأمل ، كأنهم يرقصون فوق كرسى الأعدام ولا يعبئون بقرب ساعة التنفيذ ، فكان ينكر عليهم مباهجهم ، ويظل يفكر هذا التفكير ، ويرى هذه الحياة المنيرة ظلاما دامسا ، ويذهب إلى القبور لعله يعلم من أسرارها شيئا يصرف به عن نفسه هذا الهم الذى بات فيه ، ونزع إلى الزهادة والبحث فى العقائد الدينية ، وقد أعجبه سلوك العرب الفاتحين ، وصادفت مبادئهم هوى فى نفسه ، فخالطهم وتعلم لغتهم ، ولكن الزهادة تمكنت من نفسه حتى تأصلت ، وخرج إلى البادية ليعيش فيها بعيداً عن الناس ، وفى يوم من الأيام بدا له أن يبحث سر الصحراء ، ليستمتع بجمال الوحدة ويكشف عن أسرار الطبيعة ، فسار طول هذا اليوم تائها فى البيد حتى أعياه التعب ، وجلس ليستريح فأخذه النعاس حتى أمسى عليه الليل ، ولم يستيقظ إلا مذعوراً ، إذ وجد رجلا ملثماً يقول له قم ، ما الذى أتى بك هاهنا ، أتنام هذا النوم الثقيل لتنهشك السباع ؟ إتبعنى ولا تخف ثم سار به إلى مغارة مظلمة ، ولم يلبث درمس أن اطمأن إليه ، إذ عرف أنه من العرب الذين أحبهم ، فقال له درمس : أشكرك ياسيدى ، وأرجو أن أتشرف بمعرفتك ، فأجابه : أنا معاذ ، ومن أنت ؟

درمس : أنا درمس .

معاذ : أنصرانى أنت ؟

درمس : نعم .

معاذ : وما الذى جاء بك إلى هنا يا درمس ، إن مجيئك إلى الصحراء وحيداً أمر غريب جداً ، ولقد نجتك العناية الالهية من الموت

درمس : ياسيدى أنا رجل أسبانى (ثم عرفه بنفسه وذكر له قصته) ثم قال : فى الواقع يا سيدى لم أر فى الحياة أية فائدة ، ولم أعد أعبأ بها مت أو حييت ، وخرجت أبحث عن برلى وسلفيا ، فمن يوم أن تركانى إلى الحياة الأبدية لم أعد أسمعهما ، فذهبت إلى القبور وعشت فيها مدة عساى أن ألحق بهما ، فصممت على أن أضرب فى الصحراء الخالية من دنس الناس لأعرف ما فيها من سر علنى أهتدى إلى ما فى دار الأبدية من أسرار ، ربما لا تكشف لى وأنا أعيش بين ضوضاء الناس وأضاليلهم .

معاذ : يا درمس ، أنت رجل طيب ولا أخالك إلا خالطك نور الحق ، لكنك إلى الآن لم تفتح عينيك تماماً لمشاهدته ، حتى تسير على هداه ، فاعلم أن العاقل هو الذى يخضع لارادة الله ، ويعلم سر وجوده فى هذه الحياة ، فالانسان خليفة الله فى أرضه ، خلقه ليعمرها ويحيا فيها إلى حين ، فاذا أتم العمل الذى كلف به على ما يرضيه كافأه وأعطاه أجراً حسناً ، وهى دار تربية وتعليم ، لا يصلح الانسان للعيش مع الأبرار فى الحياة الثانية إلا إذا أخذ بنصيب من التربية

فيها ، ولم يخلق الله الحياة الدنيا خاملة مملة بل زينها ببديع صنعه ، لنتأمل في آثار قدرته ، ونتعرف إليه ، ولم يخلق الله باطلا ، فكيف بك يادرمس تظن الحياة فى هذه الدنيا باطلة ، واعلم يادرمس أن عمر الانسان لا يقدر بكثرة السنين ولكن بكثير ذكرياته ، وغزير علمه وسمو عاطفته ، فان زدت فى ذلك إزددت معرفة بسر الحياة الثانية التى تبحث عنها ، وازددت قربا من خالقك ، ولا تزداد عواطفك سموا وإدراكا إلا إذا حركتها حوادث هذه الحياة من سرور وآلام وأفراح وأحزان ، وأنت يادرمس لازلت فى مقتبل العمر ، فعليك أن تكد وتسعى حتى تؤدى رسالتك فيها .

درمس : ولكن الناس يظلم بعضهم بعضاً ، ولقد قاسيت ظلماً كثيراً ، ليتك تذهب إلى أسبانيا فتكره الحياة .

معاذ : وما عليك من ظلمهم إذا عدلت فى أمر نفسك (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وذلك إن لم يكن فى استطاعتك رد ظلمهم ، ولم تتمكن من هدايتهم ، فان كان ذلك فى استطاعتك ، ولم تجاهدهم عليه ، كنت ظالما مثلهم .

درمس : ياسيدى أراك تحضنى على المثابرة على العمل فى الحياة مع أنك تركتها وتزهدت وعشت هنا ، فلم تدعونى إلى ما لم تدع إليه نفسك ؟

معاذ : يادرمس . أنا كبرت ، وعملت فيها كثيراً ، وكثرت

معارف ، فانقطعت للعبادة بعد علم ، ولا تنفع العبادة من جاهل ، ولو ضيع فيها دهر الداهرين ، ولا يصلح للعبادة إلا من كدّ فى أيام شبابه وقوته ، وأدّى ما عليه من الواجبات لوطنه وأهله ، وذاق حلو الحياة ومرها ، فارتقت معارفه وصقلت عواطفه ، وراقب المهيمن فى جميع أعماله . فتقرب إليه ، وذاق حلاوة مناجاته وهى ثمرة الحياة العزيزة التى لا يحصل عليها خامل جاهل . وأظنك جائعاً يا درمس ، ثم تقدم له ببعض ما عنده من زاد ، فأكل درمس طعامه ثم شكره من قلبه ومن نفسه الجائعة .... وأعد معاذ لدرمس مكانا ينام فيه ، فاستلقى درمس فى مكانه ، وأخذ يفكر فى كلام معاذ فكأنه فتح به أطباق عقله وأزال عنه غشاوة بصره ، وكأن معاذاً استولى على روحه ، فانجذبت إليه . وظل درمس يقظاً يراقب معاذاً من طرف خفى ، فوجده قد قام لصلاته يرتل القرآن ترتيلاً بصوت خاشع لم يسمع أعذب منه ، فصغا إليه وإلى ترتيله وتمنى لو أنه استمر يرتل ترتيله هذا حتى مطلع الشمس ، ولكنه رآه يخرج من الكهف فى الهزيع الأخير من الليل ويسير بضع خطوات ثم ينادى : يا ألله يا جليل يا عظيم ، إنى أحبك بقلبى ، ولك حياتى ومماتى ، ودمى وروحى ، أنت نعم الجليس وأنت نعم الأنيس ، وأنت غايتى ومنتهى رضاى ، فلا تحرمنى معونتك . وظل هكذا إلى الصباح ثم نام . وأفاق الضحا . لم يعهد درمس فى طقوس العبادة

فى الكنائس مثل هذا التعبد ، وأحس أن كلمات معاذ تدنو من فؤاده ، ولكنه لم يفهم هذه المناداة ولم يعرف هذه المناجاة ، فلما أصبح واستيقظ معاذ قال له :

درمس : رأيتك الليلة الماضية تتكلم وتنادى ، ولم أر معك أحداً .

معاذ : كنت أنادى وأناجى خالقى ، وخالق الوجود كله الذى لا شريك له ، يسمعنى ولا يغيب عنى .

درمس : وهل تراه حتى تناجيه هذه المناجاة ؟

معاذ : تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . نعم هذه آياته شاهدة على وجوده . نعم أحس لطفه يجرى على قلبى ، ويفيض دمعى من حنانه وبره ، ويشرق نوره على عقلى ووجدانى ، فتجرى آثار حكمته فى دمى وجنانى ، وعلى لسانى ، فتصفو روحى من أدران شهواتى . ولو لم أره ببصرى فحسبى أن ينشرح صدرى بفيض جلاله ونور عظمته ، وكفانى أنى عبده وهو خالقى لا غنى لى عن مناجاته .

درمس : إن دينكم هذا لعظيم فقد صغيت إلى قرآتك ، وأحس أن روحى تدنو من روحك ، برغم أن دينى الذى لقنه لى أبواى هو الدين المسيحى ، ولولا أنهما حذرانى غضب المسيح لاتبعت دينك هذا .

معاذ : إننا معاشر المسلمين نحب المسيح أكثر مما يحبه النصارى ،

فهو رسول كبقية الرسل ومن أصول ديننا أن نؤمن برسل الله ولن نشرك بربنا أحداً . . . أنا لا أطلب إليك أن تتبع دينى وأنت شاك فى عقيدتك ، ولكنى أقول لك : لا تغلق عقلك دون نور خالقك الذى يهديك إلى طريق الصواب والصراط المستقيم ، ولا تحجب ذهنك بالتعصب حتى ترى الحقائق الماثلة ، واعلم أنك إن لم ترفع حجب التقليد عن بصرك ضللت الطريق فلا تعتمد فى تفكيرك على تفكير غيرك ، فانك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، والله سبحانه وتعالى يحب أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ويناديهم أن أخرجوا أنفسكم من ظلمة التقليد إلى نور العقل الذى يهديكم إلى وجودى ، ولكنهم لا يسمعون ، إذا اتبعت ذلك فلا أسألك بعده شيئاً وأدعك لله وهو على كل شئ وكيل .

درمس : أعدك أنى سأبحث كل شئ بعقلى ولا أومن إلا بما يرضى فكرى وضميرى .

ثم استمر درمس فى ضيافة معاذ بضعة أيام ، وهو يتمنى أن يقيم معه إلى الأبد ، إلى أن جاء رجل يزور معاذاً يقال له طارق ، ولما انتهى من زيارته وعزم على العودة قال له طارق أرجو منك أن تصحب هذا الرجل إلى المدينة ، وتسعى له فى عمل يقيم أوده ، وأوصيك به خيراً وألا تقطع صلتك به وصله على الدوام ، فانى قد أحببته ، وهو نصرانى التبعية ، ولكنه رجل طيب أثق به على قرب

معرفتى به ، ولا أحسب اسمه كما يقول (درمس) لأن ماقصه علىّ عن حياته يدل على أن له سراً لم يكشف الغطاء عنه بعد ، وأدعو الله أن يكرمه بك وأن يكون لكليكما شأن عظيم فلا تفرط فى صحبته يا طارق .

درمس : ولكنى أود البقاء معك يا سيدى .

معاذ : قد جعل الله لكل شئ قدراً ، ولن تستطيع معى صبراً ، فاذهب مع أخى طارق فذهابك معه فيه لكما خير كثير . ثم استأذن طارق وصحب معه درمس إلى أن وصلا الى طنجه فبهت درمس إذ عرف أن صاحبه لم يكن إلا قائداً من قواد العرب الفاتحين ، واستضافه طارق عدة أيام ، فأحب طارقا حبا شديدا لدماثة أخلاقه ، (وهو وان كان أقل من معاذ فى قوة الروح) إلا أنه أقوى منه رجولة وشجاعة ، وأعجب به درمس لعدالته وحسن تدبيره ، ثم اختار له طارق عملا من الأعمال التى تساعده على كسب معاشه ، وصار يتردد عليه ويعطف عليه من قلبه ، ومن هذا التاريخ خالط درمس العرب عن كثب ، ولمس أحوالهم وفهم أخلاقهم ، شجاعة وتواضعا ، وعملا وعبادة ، وغنى وزهدا ، وعدلا ورحمة ، واستقامة ورشدا ، فعظم شأنهم فى نظره ، وتمنى لو أنهم حكموا العالم كله ، فأقاموا العدل ونشروا السلام على ربوعه ، وتذكر أسبانيا وطنه الذى يحن إليه وتذكر أهلها المعذبين . يتضورون جوعاً وهم فى جنات الأرض ، وفى

بلاد الخيرات ، وغيرهم ينعمون وهم فى بلاد قليلة الخيرات ، ويرى هؤلاء العرب ، وحكامهم يسيرون بينهم وقد تساوت الرءوس ، وأهل أسبانيا لا يأمنون الغدو والرواح ويود أنه لو كان قادراً على الذهاب بهم إلى هناك ، ليعلموا هؤلاء الطغاة المستبدين أساليب الحكم ، وأثر العدل فى حياة الأمم وتقدم العمران ... وذهب درمس يوما إلى مجلس القاضى ، فجاء رجل من فقراء اليهود وتقدم بقضية فأكرمه القاضى وسأله عن شأنه فقال : أشكو إليك موسى بن نصير فقد طلب إلىّ أرضى التى أتعيش من فلاحتها ، لينزل فيها بعض المحاربين فطلبت فيها ثمناً يتكافأ مع غلتها ومع ما يصيبنى من الارتحال عنها إلى غيرها . استعظم الثمن وعرض علىّ ثمناً بخساً ، فرفضت . فاغتصبها منى وأنا رجل فقير ، فقال القاضى : علىّ بموسى بن نصير فحضر موسى ، فطلب إليه أن يقف إلى جانب اليهودى ، وقال هذا اتهمك بكذا وكذا ، فصدق موسى على قوله ، وزاد أن قال إنه تغالى فى الثمن وحاجة الجند كانت تضطرنى إلى هذا السلوك ، وإنى مستعد أن أدفع له الثمن الذى عرضته عليه ، فعذره القاضى وقال : المفاوضة فى الثمن قبل الاغتصاب ، ويعوض عما أصابه من انتهاك حرمة حقه أن تدفع ما طلب ، فدفع موسى صاغراً ثم انصرف ، ودرمس لا يكاد يصدق ما يراه ، ويسأل من حوله أهذا موسى بن نصير القائد الأكبر نفسه ! فيجيبونه نعم . وليس لهذا الذى

رأيت كبير شأن . فيقول ان هـذا رجل يهودى ، واليهود يعتبرون فى أسبانيا نجساً ويضطهدون ، لأنهم ليسوا على دين المسيح . فيقولون له : إن ديننا ينهانا أن نأكل أموال الناس بالباطل . وليس على هذا إلا الجزيه متى دفعها فله ذمـــة وحق مثل ذمتنا وحقنا ، فيسأل درمس : وهل يجـوز لفقير أو أحـد من سواد النـاس أن يشكو الوالى ؟ فيقـولون ولمَ لا . وهـــل ولى الوالى إلا للقيام على حفـظ الحقـوق ، ورعاية مصالح النـاس فأولى به أن يقوم بها فيما يخصه ، فثبتت هـــذه المبادئ فى نفس درمس من هـذه اللحظة ثبوت الجبال الرواسخ ، وصار لا يرى العـــرب إلا أشبـاه الملائكة نزلت عليهم روح من أرواح القدس الأعلى لينشروا على الأرض ظلال السلام والرحمـة . ولكن طارقا صديق درمس الذى يواليـه ذهب فى بعض غزواته ، فأوجد فراغا فى قلب درمس كما أن سبل الـكسب ضاقت به وحنّ إلى وطنـــه ، وتذكـر كلام معاذ وأنه يجب عليه مجاهـدة الظالمين ، وطالما سمع باسم الـكونت جوليان تتحدث به سلفيا ابرلى وأنه نبيـل طيب القلب ، كما أنه أصبح لا يعلم من أمر بلاده إلا قليلاً من الفـتن القائمة فيهـا بين اليهـــود والمسيحيين . فعزم على الذهـاب إلى بلاده لعـله يستطيع العيش هنـاك أو يتمكن من مجاهدتهم بعـد أن قويت روحه ، فصمم على المغامرة وسلوك هذا الطريق بعـد الذى تعلمـه من أخلاق العـرب وشجاعتهم وقـوتهم في اقتحام أوعـر

الطرق والمسالك، ومضاء عزيمتهم وقوة همتهم . فهم لا يقبلون الحياة الوضيعة بل يطلبون حياة المجد الرفيعة ، فأخذ درمس يبحث عن عدة الرحيل ولم يكن له كبير متاع فليس له فيها ناقة ولا جمل ، وأخيراً عثر على مركب شراعية تسير عبر البحر بين طنجه والجزيرة الخضراء ، فركب فيها قاصداً إلى بلاده التى نشأ فيها ، ولكن السفينة لم تكد تقترب من شاطئ الجزيرة حتى غشيها موج كالجبال ، وكان يوم ريح عاصف فأخذها اليم بمن فيها ، ولكن درمس كان يجيد السباحة فقذف بنفسه فى الماء ، وظل يقاوم لجحه سابحاً حتى إذا بات على بعد يسير من الشاطئ أنهدت قواه وأنهكها الاعياء ، ولم يعد قادراً على مقاومة البحر الجبار ، يقذفه موجه دفعة بعد أخرى بشدة ويعلو به من شاهق الى منحدر ، حتى إذا تمائل وأفاق لطمه على وجهه مرة بعد مرة حتى فقد وعيه ، ولم يعد يحس شيئا، حتى إذا كان في اليوم التالى أفاق فى الضحا فوجد نفسه على سرير قوائمه من الذهب الابريز مرصع بالياقوت ، مفروش بالديباج ، ووجد ملبسه من الحرير الخالص الذى لم يعرفه من سنين عده ، بل لم ير مثله أيام عزه فى كنف ربلى ، ووجد نوافذ الحجرة مغطاة بأستار من السندس البديع ، ووجد سقفها موشى بالذهب ، وقد أثثت بأساس لم تقع عينيه على مثله ، فيقف فى الحجرة مذهولا ويفتح نافذة من النوافذ فيجد نفسه فى قصر فخم تحيط به الرياض من كل مكان فيظل مبهوتا ،

ثم يتفقد أعضاءه عضوا عضوا ويعصر بطنه فيجده خاويا جائعا ، ثم يلاحظ شهيقه وزفيزه فيجده يتنفس كما كان يتنفس . . . إذا كان هو كما هو فأين هو . فيقول لعلني وصلت إلى الحياة التي ذهبت إليها سلفيا وبرلى . ولكنه يحس الجوع ولا يزال غير آمن ، وكان قد سمع أنه ليس فيها شيء من ذلك يشعر به الأبرار ، فيسأل نفسه هل اقترفت شيئا . ثم يتذكر جيدا لعله فعل سيئة لا يذكرها فلا يجد ، ثم يقول لنفسه ولم كل هذا العناء ، ناد سكان هذا القصر لعلهم يريحونك من عناء هذا التفكير ، ثم يهم بأن ينادى فيعتريه شيء من الوجل ، ويذكر أن سلفيا حذرته من النبلاء ، وأنهم يقتلون بعض الناس في قصورهم فيخشى أن يكون في قصر من قصور أحدهم التي كان يسمع عنها هذه الأوصاف ، ويتخيلها ولا يراها وبينما هو يتوجس خيفة من أن يلاقي في هذا القصر حتفه ، وجد مزلاج الغرفة يتحرك ، فدق قلبه دقات سريعة كأنه كان يتحرك بالكهرباء ، فمس قلبه فأهتز ، وسرعان ما انفرج الباب عن غادة هيفاء لم ير أجمل منها . قالت له بلهجة لم يسمع أرق منها . عم صباحا أيها الأمير العظيم ، وانحنت انحناءة التبجيل والتعظيم ، فبهت وأعجزه الحال عن المقال ، فلم يرد التحية ووقف مشدوها ، فقالت له في صوت كله رفق ورحمة وحنان ، هل يسمح سيدى بأن يتبعني لأريه المرفق ، ولكنه في موقف اضطرب فيه

فكره واختلج انتباهه ، وأخيراً وجد قدميه تسيران خلفها حتى وصل إلى المرفق ومكان الاستحمام ، فتركته قليلا ثم عادت إليه وقالت هذه ملابسك يا سيدى ، فأخذها من يدها بحركة آلية كالعبد المسير ، عليه الطاعة والتنفيذ ، فوجدها من الحرير الموشى بالذهب فعجب من أمره أيما عجب ، وأصبح يريد أن يعرف ما خفي عليه من أمره بفارغ الصبر ، لولا أنه يخاف أن يكون فى الأمر شر يراد به إذ أنه يعلم عن الأسبان أنهم إذا أرادوا قتل نبيل ألبسوه أحسن ملابسه ، فخشى أن يعجل بنفسه . ثم جاءته ثانية وقالت له : أرجو منك يا سيدى أن تتبعنى ، فتبعها كالمذهول وسار يمشى وراءها من بهو الى بهو وهو يرى ولا يكاد يصدق ، وكان يمر أثناء سيره ببعض الفتيات الجميلات فى أحسن صوت وملبس فيحنين رءوسهن ويبتسمن وهو لا يدرى ولا يعرف إلى أى مصير يسير بعد كل هذه المناظر الخلابة ، ثم سار يتبع الفتاة حتى أوصلته إلى حجرة المائدة ، وقالت هل يسمح الأمير بتناول الفطور وقد هيئ لسموك بعناية توافق ما يناسبك ، فأكل سريعاً من شدة الجوع ورجاء أن يعرف ما بعد ذلك ، حتى إذا انتهى قالت له هل لك يا سيدى الأمير أن تتريض فى حديقة القصر ؟ ، أو تميل إلى بعض الراحة حتى تسترجع قواك ؟ فقال فوراً بل أحب الآن الاستراضة وأحس شيئاً من الغبطة والفرح ، إذ أنه سيخرج من هذا السجن البديع إلى

الطبيعة الفسيحة ، فسارت أمامه وهـو يتبعها حتى وصل إلى حديقة القصر فوجدها حديقة جميلة باسمة فاستراض فيها وقتاً يسيراً وهو شارد اللب والفكر ، ولكنه بدأ يشعر ببعض الطمأنينة لأنه لم ير حركة تدل على الشر بل رأى إكراماً واحتراماً يفوق الوصف ، ولكنه ساءل نفسه لمن يكون هذا القصر ؟، وهل فى أسبانيا كلها نبيل يكرم عابراً أو غريقاً إلى هذا الحد ، وقد مردوا على القسوة والظلم والطغيان والتكبر ، ولا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً . ثم رأى مقصورة من المقاصير فجلس يستريح فيها وما لبث أن رأى رجلا مسناً تبدو عليه سمات العظمه والنبل ، تبدو فى وقاره وفخامة ملبسه وحسن زينته ، فلما اقترب من درمس اضطر إلى الوقوف وأخذ قلبه يخفق فاحتضنه النبيل وجعل يقبله بحرارة ، وقال له طاب صباحك يا درمس أرجو أن تكون قد أصبحت صحيحاً معافى ، فقد كنت قريباً من الموت ، فالحمد لله الذى نجاك ، فكان هذا يوم العجائب فى حياة درمس ، وأعجب ما فيه أنه يناديه باسمه ولم يسبق لهما التعارف وبدأ يسائل نفسه من يكون هذا النبيل ؟

الفصل التاسع

الكونت جوليان فى سبته

استوطن جوليان سبته وأقام بالجزيرة الخضراء من عهد أبيه

وبنى فيها قصراً فخماً جمع فيه كل التحف التى تمكن من احضارها أيام أبيه من طليطلة ، وقبل تجريده من القاب الامارة والانتساب إلى بيت الملك ، حتى أصبح يدعى الكونت جوليان ، وكان القصر على العموم جامعا لكل أسباب الكمال والجمال ، سكن هذا القصر مع نورا ردحا من الزمن حتى ماتت ولم تعقب له إلا بنتا واحدة هى سارة وانضمت إليه لندل بعد خروجها من الدير وظلت معه ، إلا أنها أصبحت فى الحقيقة راهبة صورة ومعنى ، فلم تكن كزوجة لأنها تقضى معظم أوقاتها فى العبادة والنسك ، وانضم إليه يليان ، والمند ، وأرطباش ، فكان هؤلاء جميعا يسكنون هذا القصر وكان جوليان إلى هذا الوقت يحب لندل حبا شديدا مع أنها لم تبق على طبيعة لندل الأولى ، بل أصبحت لندل القديسة ، ولكنها كانت مرآة يرى فيها ذكريات شبابه ، وكان يفيض عليها حنانا ورحمة لما لاقت فى سبيله من عناء ، وكان يرى فيها مثال الوفاء وكمال الطهارة والفضيلة ، وذلك ما جعله يحتمل أطوارها التى جعلتها تزعم أن أرواح القديسين تهبط عليها وتنبئها بنبوءات كثيرة تتحدث بها إليه ، فيلاطفها ويرق لحالها برغم أنها كل يوم تثير أشجانه وتسمعه كثيراً من مواعظها المؤلمة ولكنه أخيراً بدأ يسمع لها ، ويرق قلبه لمواعظها ويعتقد فيها التقوى ويهتدى بعبادتها ، وكان مبدؤها الذى تدعو إليه التكفير عن الخطايا ورد الحقوق إلى أهلها ....

وكان يصيبها أحيانا إغماء شديد يشحب منه لونها ، فاذا ما أفاقت تحدثت إلى جوليان بمراثيها ، وكانت تخلط فى أحاديثها إلا أنه كان يسمع منها أخبارا عجيبة ونبوءات غريبة يصدق الكثير منها . . . وكانت تقول له يا جوليان ، إن ما أصابك من متاعب وبلاء حتى فقدنا ملك أبيك وذقنا هـــذه الويلات لم يكن إلا من فعلة فعلتها لم أدرك سرها إلى الآن ، ثم تظل تبكى ولا تفتأ تذكر طفلها المشرد من ليلة الميلاد ، وكانت تقول له يا جوليان إنى أراه فى نومى قريباً منى ، قد كبر وأصبح رجلا ، ويناديني هأنذا يا أمى . كيف تجهليني . وتجهش بالبكاء وكان جوليان يعرف سر هذا الطفل دون سواه من الناس ، وظل يكتمه طوال هذه السنين ولا يقوى على أن يبوح به للندل أو لأحد من الناس ، حتى ولا للطفل نفسه بعد أن شب وصار رجلا ، وكان لا يفكر إلا فى الانتقام من عدوه الذى خان الأمانة والعهد واغتصب الملك ، فهو يناهضه ويعمل ليل نهار في بث الدعوة ضده حتي تتألب البلاد عليه ، ولكن لندل تبكى بكاءً متصلاً يعكر عليه صفوه حتى أصبح يرى أنه لا بد من إباحة سره مهما كانت النتائج ، رفقاً بهذه المخلوقة التعسة وحتى يكفر عن خطيئاته ، ولكنه كان يتهيب الموقف إذ أن أولاد غيطشة انضموا إليه من مدة طويلة وأصبحوا رجالا . وهم يحبونه حبـــاً شديداً وهو يخشى إن باح بسره وعلموا أنه كان خائناً لهم ولأبيهم احتقروه وتفرقوا

من حوله ، فكلما همّ بأن يبوح بسره عـــدل ، ولم يهده تفكيره الى طريقة محمودة العاقبة يبوح لهم فيها بسرهم جميعاً ، ولـكن لندل كانت تذيقه بيكائها ألوان التعذيب حتى سئم ، وكانت مواعظها تحز فى نفسه ، وبينما كان يتحادثان زاق لسانه بعد طول حذر .

جوليان : يالندل أنا أرى يليان يعطف عليك من قلبه وأنت تحبينه ألا يكفيك منه هذا فيكون عوضاً لك عن ولدك ؟

اندل : نعم أنا أحس له فى نفسى حباً شديداً وهو كذلك دون اخوته فهل ترشدني إلى ذلك ؟

جوليان : سر ذلك أنه طفلك الذى فقدته ليلة الميلاد ، وعاش معى ومعك طول هذا العمر وهو لا يعرف .

لندل : تبـــكى وتنفعل . ان هـــذا لشئ عجيب ، إذن أين يليان الثانى ؟

جوليان : وما حاجتك بذلك وقد تعرفت إلى ولدك .

لندل : لا بد لى أن أعرف كل ذلك ، فالنحس لن يزول ولا تفيق أسبانيا من كربها وتأتيها رحمة من السماء إلا إذا قدر لهذا الطفل أن يعود إليها إنها لا كبر خطيئة ، ولا تغفر إلا برد الحقوق إلى أهلها .

يبكى جوليان .

جوليان : ارحمينى يالندل فقد تجرعت كأس الهموم وإنى أفضل الموت على الحياة .

لندل : ما حلّت علينا النقمة إلا من أجل هذا الطفل ولا فائدة لك من الموت الآن ، فهمك فى دار الدينونة أكبر من همك هنا . إن همك لن يزول هنا وهناك وينتقم الله لك من عدوك إلا إذا بحثت عنه ورددت الحقوق إلى أهلها ، ياجوليان إن الحق يفتح أحضانه لمن يعود إليه ويطارد من يتخلف عنه حتى يهلكه ، ياجوليان إن العودة إلى الحق بعد الضلال أكبر درجات الأبرار ، لأنها أشق على النفس من أعمال الحسنات والمكرمات ، فابحث عن هذا الطفل ورد إليه حقوقه وتنازل له عن كل ما تملك تكفيراً لخطيئاتك عسى أن تزول المحنة عنا ، وها قد علمت أن الذى فى السماء لا ينسى ويأخذ بحق البائس والمشرد ، ولقد أردت شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ، فزعزع عرش أسبانيا وهلكت البلاد من أجله ، خبرنى أين هو ياجوليان ؟

جوليان : لقد أخذته من مهده بوساطة مرضعه ووضعت بدله يليان هذا ، ثم أرسلته إلى برشلونه وكانت لدى أخبار عنه إلى بضع سنين ولكن بعد هذه الفتن الطويلة والحروب الكثيرة لم أعد أسمع شيئاً عنه .

لندل : إن قلبى يحدثنى أنه قادم لانقاذ أسبانيا .

جوليان : لعل الله يحقق نبوءتك هذه .

لندل : إئذن لى أن أذهب لولدى فأضمه إلى صدرى ، فانى لم أضمه إلى صدرى مع أنه ولدى ، ثم تبكى .

جوليان : كيف تخبرين هؤلاء أبى خائن خسيس ؟ ويبكى بكاءً مراً .

لندل : إذا رجعت إلى الحق بقلب صادق طاهر فلا تخش شيئاً ، فان من سار إلى جانبه احترمه الخلق مكرهين ، فلا يردك الشيطان ، وسأقوم بهذه المهمة نيابة عنك وستجدهم يحبونك ويوقرونك أكثر من أى وقت مضى .

ثم تتركه يبكى . وتذهب إلى يليان فى حجرة نومه على غير عادتها وتضمه إلى صدرها بحنان شديد ، ثم تبكى . ويقف يليان مبهوتاً من هذه المفاجأة ، ويرفق بها ظناً منه أن نوبة شديدة من تلك التى تأتيها عاودتها الليلة ، أشد وطأة مما مضى وهو لا يدرى أن أبويه بعثا له ثانية بعد موتهما !!

يليان : أنا أشكرك على هذا الحنان العظيم ولكن رفقا بنفسك أيتها القديسة ، فالمرأة القديسة يجب ألا تحتضن الرجال فأرجو منك أن تفيقى .

لندل : لا تنكرنى يا يليان (ودموعها تنهمر من عينيها ثم تضمه إلى صدرها ثانية) .

يليان : فلترحمك الأرواح التى تنزل عليك حتى لا تعودى إلى مثل ذلك .

لندل : أنا أمك فلا تنكرنى .

يليان : نبوءة جديدة من نبوءاتك أظنك أسرفت فى هذه النبوءات يا سيدتى .

لندل : أنا أمك فلا تنكرنى فلست جاحدة ، فلا تكن جاحداً يا يليان .

يحار يليان فى أمرها ويشفق عليها فيقول لها إجلسى لأعرف نبوءتك هذه ولعلك تباركيننى .

لندل : لم تعد نبوءة يا يليان وقد تحولت إلى حق لا بهتان فيه ، إنى أمك وأبوك جوليان وقد أخبرنى بذلك الليلة .

يليان : ما هذا . أهو يوافقك على ما تقولين ؟

لندل : نعم .

يليان : إذن أنا خرجت من دنس (ثم يبكي) يا للعار ! أصبحت متهم النسب ، كيف أقابل الناس (ويبكي بكاءً شديداً) وقد غمرته عاطفتان . عاطفة الفرح بمعرفة أمه وأبيه بعد أن كان قد دفن والديه (على ما كان يظن) وعاطفة الشرف إذ كان يظن أن نسبه قد تلطخ بما يريب ثم يقول لنفسه لقد عرفت العاطفة التى كانت تجذبنى إلى هذه المرأة إنها أمى .

لندل : كن إبناً باراً لأمك وأبيك وكفر عن خطاياهما ، فما كانت أمك إلا زوجاً لأبيك ولم يمت لها ضمير طول حياتها ، مع أنها صادفت ما يميت الضمائر ولا يحييها ، وامتحنت فى ضميرها أصعب

امتحان ، ففازت فوزاً مبيناً ، فكن مثلها باراً رحيماً ، وخفف عنّى وعن أبيك بعد ما لاقينا من عذاب .

يليان : قد علمت الآن سبب دخولك الدير وما أصابك بعده من مثل هذه النوبات التى تعاودك كل حين .

لندل : كن ابناً رحيماً يا يليان لم أكن امرأة لا تحرص على الفضيلة يوما ما ، ولو كنت امرأة مدنسة لخرجت من رذيلة إلى رذيلة ومن دنس إلى دنس ، ولكنى أم من أطهر الأمهات ، واعلم أن الضمير الحي أصل من أصول الأرواح العلوية فلن يموت مهما صادفه فى هذه الحياة من بلاء ، والفضيلة طبع ثابت فى النفس المؤمنة لا تغلبه الحوادث ، والرذيلة طبع فى النفس الشريرة لا يفارقها ولو أحيطت بجميع ما يقومها .

يليان : إذن كيف أتيت إلى هذا العالم ؟

لندل : الحق أنى تزوجت من أبيك ولم نعلن الزواج . وأرغمته الظروف السياسية التى كانت سائدة فى هذا الوقت على زواجه من نورا .

يليان : إذن أنت طاهرة وهو رجل فاجر تزوج مرتين على غير شريعتنا .

لندل : كن ابنا باراً بأبيك وإلا فأنا لست أمك وكفاه ما قاسى من ويلات .

يليان : ولكن كيف يعتقد الناس الآن أنى شريف النسب

طاهر المنبت ؟

لندل : العيش فى الدنيا قليـــل ، ولا يهمنا ما يعرفه النـاس عنا ولكن الذى يهمنا أن نعرف فى أنفسنا أننا بررة ، وهناك فى دار الدينونة يعلو اسم الأطهار الحقيقيين ويختفى المضللون .

فيرق قلب يليـان إلى أمه ويحتضنها ، وتأخـــذه فى ذلك حالة لا يقدر على تصورها أكبر الكتاب من حنان ممتزج بشتى العواطف ، ويقـول إنى أفخر بأنك أمى . وكيف لا أفخـــر بأم هى الفضيـلة المجسمة . ثم تقول هيا يا يليان فلنذهب إلى أبيك إذ تركته يبكى ، لنخفف من أحزانه وأشجانه ، وإياك أن تسىء إليه بلفظ يكرهه ، ثم يذهبان فيدخلان على جوليان .

يليـان : لا تحزن يا أبى فليلتنـا هذه ليلة فرح بهذه المعرفة لا ليلة حزن ، وقـد علمت من أمى كل شىء وأن الاثم لا يقع عليكما بل يقع على جدّى الذى آذاكما وها قد أصابنا جميعا سوء رأيه .

جوليان : ولـكن كيف نخبر بذلك ألمند وأرطباش .

يليان : هل فى الأمر سر آخر ؟

جوليان : نعم (ويبكى بكاءً مراً) .

يليان : لا تخش شيئا وخبرنى

جوليان : إن اسمك الحقيقي هـو درمس وأما يليان فهو أخ لألمنـد وأرطباش ، وضعتك مكانه فى مهـده وشردته طفلاً انتقاماً من

جدك ، فنزل مقت الله علينا جميعاً فان عاد إلينا زالت عنا النقمة ، ليته يعود فأكفر عن خطيئاتي .

يليان : إذن أنا درمس ولست يليان ، ومن الآن سأدعو نفسي درمس حتى يعود يليان فلا يناديني أحد بغير اسمي ، ولا تخف ، وأتعهد اليك بأن يكون ألمند وأرطباش أكثر وفاءً لك من سابق عهدهما فلا تحزن . وانصرف كل منهم إلى مخدعه ، وفي الصباح ذهب درمس (يليان سابقاً) إلى ألمند وأرطباش وتلطف معهما حتى نبأهما حقيقة أمره ، فطافت بهما ذكريات كثيرة من وجد وفقد ، وبعد أن كانا يعرفان درمس كشقيق أصبحا يريانه كأحد الأقارب ، ولو أن رابطتهما لم تتغير ، ولكن التعارف الجديد غير من طبعهما نحوه بالرغم منهما ، وأصبحا يسيران وحدهما كاسفي البال والحزن بادٍ عليهما بما أصابهما من يتم وفقد ، فقد علما أن درمس ليس أخاً لهما بعد أن فقدا والديهما ، وعلما أيضا أن لهما أخاً مفقوداً هو يليان ، ولم تكن هناك في الحقيقة عوامل مادية توجب الحزن ولكن الحزن خالطهما من المعرفة واستقراء صحيفة الماضي المحزنة .

ومضت أيام قليلة بعد هذه الذكريات وجاءتهما أخبار أخرى أحزنتهما حزناً على حزن وحزت في نفسيهما ، إذ جاءت من طليطلة أن مريسيا ماتت ، وتواترت الأخبار بأنها ماتت مسمومة من سم دسه لها لذريق بعد أن فسق وفجر ، ولو أنهما لم يبكيانها لشدة

حقدهما عليها لخياناتها وغـــدرها ، ولأنها لفظتهما كما تلفظ النـواة ، إلا أنهما شعرا بأن قلبيهما يفيضان من غير سبب ، ولعل ذلك من آثار دم الأم الذى يجرى فى عروقهما وهو فوق الأغيار والخطايا ، أو لأنهما فكرا فى خطيئاتها وأشفقا عليها من العذاب ، أو تحسرا من أفعالها الماضية حتى انتهت بهذه النتيجة السيئة ، أو لأنهما أحسّا العار الذى جرته على الأسرة كلها تلك المـــرأة الشريرة ، فلا كانت ولا وجدت ، فانهما من صميم قلبيهما كانا يتمنيان أن يولدا من أم أخرى فيذوقان حنان الأم يوما واحدا مع الشعور بأن هذه الأم امرأة نبيلة فاضلة ، ولكن هكذا شاءت الأقدار ، فهما من أتعس مخلوقات الله ، وحالتهما النفسية تفتت الأكباد ، وكم تشقى فى هذه الدنيا أنفس ، وتموت من لهيب نار شهوات غيرهم من الأدنياء الآثمين ، وهى نيران مهلكة أشد وأنكى من نيران الحروب ، بل هى أشد من القتل وأثقل وقعا ، وأنكى عذابا وإيلاما .

وكلما توالت الأيام تحفزت هذه الأسرة للانتقام من لذريق ، وأصبحوا يرون الحياة عاراً بعد أن سلبهم ملكهم ومزق أعراضهم وكرامتهم ، وبعد حروب كثيرة لم يتمكن بعدها جوليان من الانتصار على لذريق تشاوروا فى أمرهم واستقـــر رأيهم على محاربته ببث الدعوة ضده فى البلاد ، بدل الاستمرار فى حرب لم ينالوا منها إلا فقد الأموال والرجال ، فأخذ جوليان يعمل بجد وكد وبما

أوتيه من ذكاء وحذق فى تأليب البلاد على لذريق ، واستغل الحوادث وكيف الأمور بما يناسبها ، إذ رأى اليهود مضطهدين فى سائر الاقطاعيات ، تسلب أموالهم وتصادر ، وتستحل نساؤهم ، وتقتل أولادهم ، فرأى أن يستعين بهم على هذا الطاغية ففتح لهم أبواب إقطاعيته ، وقابلهم بصدر رحب ، ورحب بمهاجريهم حتى عمرت سبته ونقلوا إليها أموالهم ، واطمأنوا إلى عدالته فأحبوه ووثقوا به ، وكانوا أهل ذكاء وفطنة ومعرفة بأساليب الدعاية ، فلما رأى منهم ميلا إليه ووثق بهم طلب إليهم أن ينشروا له الدعوة سراً فى طول البلاد وعرضها ، وأن يؤلبوا البلاد على لذريق حتى إذا ماعزم على حربه ومنازلته أمكنه أن يتغلب عليه ، وفعلا قام اليهود بهذا خير قيام ، وباخلاص شديد لشدة مالاقوه من ظلم وعنت ، فأثمرت دعوتهم وبدأت تؤتى أكلها .

الفصل العاشر

ظهور يليان فى الأندلس

بالرغم من أن جوليان كاد ينتصر على لذريق بهذه الدعايات التى بدأت فى الظهور وكان لها دوى شديد فى أسبانيا كلها ، فان آثار الشيخوخة هدت قواه ولم يعد قادراً على إثارة حرب جديدة ، خصوصاً بعد المآسى الكثيرة التى لاقاها والحروب التى طالما

شنها على لندريق ، ولم تأت بنتيجة تذكر ، ودخل فى روعه من كثرة تنبؤات لندل أنه سوف لا ينتقم لهم من لندريق إلا ذلك الطفل المشرد يليان إن ساقته الأقدار إليهم ، وكان لا يزال على قيد الحياة .

وذات ليلة حدثته لندل أنها رأت غيطشة يقول لها عرفت ولدك وأما ولدى فقد وجدته ، ومازلت أطوف به وأناجيه حتى رغبته فى الرجوع إلى بلاده ، ثم تقول لكنى رأيته بعد ذلك يبكى ويقول لى إن يليان قادم إليكم ، فقولى لجوليان ينتظره على الشاطىء حتى لا يغرق ، فلا أجد بعده أحداً ينتقم لى ، قولى لجوليان ينقذه فيكفر عن خطيئاته ، ولكن جوليان يجيبها : لقد عاودتك نوباتك يا لندل ! فتقول له : لم أكن واهمة ، فقد رأيته وطيفه يناديني ، ولكن جوليان لم يأبه لقولها ، وفى الليلة التالية جاءته لندل وقالت له إن غيطشة جاءنى وقد كاد يزهق روحى فماذا أفعل بك حتى تصدق . وجوليان يرى أن هذا هذيان أصاب لندل من آثار الوحدة فى النسك والتعبد ليلا ونهارا فصارت تتمثل لها هذه الخيالات ، ولكنها عاودته وأمسكت بتلابيبه وقالت : ياجوليان ، ارحمنى كاد يزهق روحى ، إن شبحه يلازمنى وكأنى أراه رأى العين إذهب إلى الشاطىء وانتظر ، وتبكى بكاءً شديداً ، وتقع على قدميه تقبلها وهى تقول ارحمنى من هذا الطيف ، إذهب إلى الشاطىء ولا تيأس من روح الله . عندئذ لا يجد جوليان مفراً

من الذهاب إلى الشاطئ ، ثم ذهب فى صباح اليوم التالى ومكث حتى الغروب ، فلم يجد إلا سفناً تمخر ، فرجع ثانية بخفى حنين ، فقابلته لنـدل وقالت ارجع من حيث أتيت وخذ رجالك وعدتك ونم على الشاطئ ولا تأتنى حتى يكون معك باذن الله ، قال لى الطيف إن ميعاد مجيئه قد قرب ، فان لم تنقذوه غرق ، فاذهب ولا تيأس من روح الله ، فحار جوليان فى أمر هذه المخلوقة العجيبة ، فقد أصبحت غريبة الأطوار لدرجة لا تطاق ، وآثر الذهاب إلى الشاطئ هروبا من وجهها ، وتأثراً من هذه الحالة التى اعترتها ، فمكث على الشاطئ يومين كاملين لا تلوح له بارقة أمل ، حتى أحس من نفسه أنه ضعيف الارادة إذ يطاوع جنون هذه المرأة المخبولة ، ولكنه وجد من الخير له ألا يعود حتى تهدأ نوبة هذه القديسة الجديدة ، ومن جهة أخرى فانه فى كثير من الأحايين يدفع الأمل الانسان إلى التطلع وراء أستار الغيب والسنن الطبيعية انتظاراً المعجزات على غير هدى ، ولكنه فى اليوم الثالث قبيل الغروب رأى جسماً تتقاذفه الأمواج بعيداً عن الشاطئ وهو يغالب لجج الماء فى حالة تدل على اليأس والقنوط ، فاستنفر رجاله حتى يعلم حقيقة هذا الشبح الذى تراءى له يعلو ويهبط ، وما هى إلا برهة حتى قذف رجاله بأنفسهم فى الماء وظلوا يسبحون مسافة طويلة ، ثم عادوا برجل قد أغمى عليه من شدة ما جاهد وناضل ،

فلما رآه جوليان لم يصدق أنه يليان وأن نبوءات لندل تصدق إلى هذا الحد ، وظن أنه غريق أراد الله نجاته على أيديهم كما يحدث فى بعض الأحيان ، وأنه عمل خير نبت فى أرض أحزانهم وآلامهم وأمانيهم ، ولكن مرّ به خاطر . ولمَ لا يكون يليان ؟ فنظر إليه ولم يجد سبيلا إلى معرفته لأنه فى إغماء شديد ، فتذكر الصليب الذى أعطاه لسلفيا وأوصاها بأن تعطيه إياه متى كبر ، فبحث عنه وهو قليل الرجاء فى العثور عليه لأن هذا كلام مضت عليه سنون ، وبحث عنه فاذا به مربوط إلى عنقه وذراعه ، وهو هو بعينه وعليه الرموز التى كتبها عليه ، فكاد يجن من الفرح ، ثم يقول لقد صدقت النبوءة . وعاد يليان إلى أهله ، حقاً إن الأقدار لا يغالبها مغالب ، والله غالب على أمر الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون . واعتقد من هذه الساعة أن الله كفّر عن خطيئاته ، وأن لندريق سيلقى جزاءه على يد يليان ، ثم أخذ يساعد رجاله فى إسعافه ، فأفرغوا من جوفه الماء الذى جرّعه له اليم وهو فى غمراته ، ولكن يليان لم يفق بالرغم من أن نبضه كان منتظما يدل على أنه لم يفارق الحياة ، فحمله جوليان مع رجاله بعد أن أرخى الليل سدوله وسار به حتى وصلوا إلى القصر وأهله نائمون ، فبدل له ملابسه وألقاه على سرير فى أفخر حجرة للنوم فى قصره ، واستدعى طبيبا لمعالجته ، وظل جوليان ساهراً عليه إلى هزيع الليل الأخير ، وقد أكّد الطبيب أن

صحته طيبة ولا خوف عليـــه مطلقا ، وأنه سيصبح سليما معافى ، إلا أنه يحتاج الراحـة التامة ، وطلب إليه أن يذهب ليستريح ، وأوصى بألاّ يقلق يليان أحـــد من القصر ، كما أوصاهم بألاّ يفجأه احد بأى خبر أو استعلام أو أى حادث يثير كوامن نفسه ، والأفضل ألاّ يتصل به أحد حتى تهـــدأ أعصابه تماما ، وألاّ يبقى فى خدمته إلا خادما ذكيـة حسنة التصرف ، وتبقى بعيدة عنه وتراقبه من طرف خفى وترشده إلى حاجاته إن احتـــاج شيئا ، وأن يترك لشأنه لأنه منهـوك القوى ويحتـاج الراحة التامة ، فلم يثق جوليان بأحد يقوم بهـذه الخدمة سوى كريمته ساره ، فأيقظها وبلغها تعليمات الطبيب وأمرها بأن تبقى فى خدمتـه ، فقفزت أمامه من شدة الفـرح ، وصارت ترقص طربا لتحقق نبوءات لنـــدل ، فقـال لها جوليان إما أن تكتمي شعورك أو أعهـد بهذه المهمـــة لغيرك فتعهدت له بذلك راضيـة مسرورة ، ثم ألقى إرشاداته على أهل القصر ، ثم ذهب إلى مخدعـه ليستريح ، وظلت ساره قائمـة بجـــوار حجرته تتسمع إلى أنفاسه وراء الباب فتطمـئن لأن تنفسه أصبح طبيعيا ، وظلت تلقي تعليماتهـا على الخدم وأهـل القصر طبقا لارشادات الطبيب ، فنام يليان نوما عميقا ولم يستيقظ إلا في الضحا فلما أفاق رأى ما رأى .

إلى أن ذهب يـتريض فى حديقـة القصر ، وجلس يستمتـع بالهـواء العليل تحت أشعة الشمس وظـلال الأشجار ، إلى أن جـاء

جوليان وعانقه وقبله وناداه باسمه درمس . فدهش يليان من هـذا الموقف وهذه الأحوال وتلك المرائى التى يراها وحار في أمره ، تارة يتوجس خيفة وتارة يستبشر بما يرى وتمر به ذكرياته من السحاب .

يليان : كيف عرفت اسمى أيها السيد النبيل ؟

جوليان : من الصليب . شكرا لله الذى جعلك تحافظ عليه .

يليان : وما سر هذا الصليب .

جوليان : ألم تعلم عنه شيئا ؟

يليان : بلغتنى أمى سلفيا أنه تميمة من التمائم وقالت أن هناك سرا تود أن تبوح به إلىّ ولم تقل ذلك إلا وهى على فراش الموت ، وغلبتها سكراته فلم تتم .

جوليان : ألم يخبرك برلى عنه شيئا ؟

يليان : وهـل تعرف برلى . إن هذا لعجيب ياسيدى . لم يخبرنى بشيء !

جوليان : لقد أوفيا

يليان : وهل تسمح لى بشرف التعارف .

جوليان : أنا عمك جوليان . وأنت يليان ولست درمس . ولست ابن برلى . . . . ولكن ابن الملك غيطشه

بهت يليان من هذه الغرائب وأخذ يقول فى نفسه . . أنت يليان . . لست درمس . . عمك جوليان . . لست ابنا لسلفيا ولا ابنا لبرلى . . أنت

ابن الملك غيطشة . . . حقا إن حياتى كلها عجائب . ما هذه الطلاسم أما آن لها أن تحل . إن لم أكن أنا كما كنت فمن أنا الآن ؟ وهل سأكون فى المستقبل . أم أكون شخصا آخر .

يلبان : وكيف كان ذلك

جوليان : إلى هنا لا يمكننى أن أبوح لك بشىء

ثم يجد جوليان نفسه محرجا ، لقد صرح له بكل ذلك . وغدا سيعلم من أهل القصر ، فلا سبيل إلى الانكار ، وأطمأن لأن القديسة لندل أخبرته بأن الذى يرجع إلى الحق لا يخزيه إلا إذا خاف منه واستمر على مخاصمته . . . ولكنه لا يقوى على الكلام .

يلبان : إذا كان فى الأمر جريمة فصرح ولا تخف ، وأعلم أنى عشت أياما من حياتى فى جو كريم ، خال من الدسائس التى تعانونها فى أسبانيا وتعلمت التسامح . وقد بعثت إلى الحياة ثانية ونجوت من الغرق على يديك ، وهذا جميل يكفر ما مضى مهما عظم أمر الماضى ولن أنسى فضلك فيه ، وأعاهدك على الوفاء والكتمان .

جوليان : نعم أنت يلبان . . . ولست درمس . . .

يلبان : قد عرفت أنى يلبان ، ودرمس شخص آخر ثم ماذا .

جوليان : أنت يلبان . . .

يلبان : أقسم لك أنى صدقت أنى يلبان .

جوليان أنت يلبان . . . ابن أخى الملك غيطشه .

يليان : أنا يليان ابن الملك غيطشة . صدقت . اتمم ولا تخف .

جوليان : أنا عمك يا يليان .

يقوم يليان فيقبل يده ويقول .

يليان : بالله أتمم فانى أحترمك وأجلك فلا تخف .

لم يعهد جوليان هذا التقبيل ويرى فى يليان شخصاً آخر بعيداً عن عوائد وتقاليد الأسبان وله نظرات غريبة ورجولة مخيفة وهيبة جليلة فتلعثم .

جوليان : أرجو منك ألا تقبل يدى وأقلع عن هذا فليس من عاداتنا .

يليان : إنى رايت العرب يفعلون ذلك احتراما لكبارهم .

جوليان : ولكنا لا نحب ذلك .

يليان : لك ذلك فأتمم حديثك .

جوليان : أنت يليان .... ابن أخى غيطشة .... نعم كان ابوك ولى العهد ثم صار بعد ذلك ملكا .... فنزغ الشيطان بينى وبينه لأن جدك حرمنى حقوقى ، ثم إنه ولد لى ولد قبل ميلادك بليلتين أو ثلاث ، لا أذكر ذلك جيداً ، فوضعت ولدى مكانك وأعطيتك لبرلى وسلفيا ، وكان ما كان (ثم يذكر له التاريخ من يوم أن ذهب إلى وقته هذا تفصيلا) .

يليان : طوبى للذين يذكرون خطيئاتهم ويكفرون عنها قبل

مماتهم ، وما الحياة الدنيا إلا صحائف تجمع بين دفتيها الحسنات والسيئات ، وطوبى للذين تزيد حسناتهم ، لا تثريب عليك ، اليوم يغفر الله لك .

جوليان : إنك أخ كريم وابن أخ كريم ، وضعت عنى وزرى ، وخففت علىّ حملى الذي كنت أنوء به ، ولأكفر عن خطاياى فسأرد الحقوق إلى أهلها ، تنازلت لك عن جميع ما أملك .

ثم أمسكا عن الكلام ، وأطرقا كأن على رأسيهما الطير ، وفاضت عيناهما بالعبرات من وجد التعارف ، وغرقا فى سبحات الخواطر والمشاعر ، حتى إذا ما هدأت نفساهما وأحسا برد الرضى ، وخالط قلبيهما حنان الرحم ، وبدأا يتحدثان من جديد كأنهما تعارفا من يوم الميلاد ، ثم بدا لجوليان أن يعرفه ذوى قرابته ، فسار به إلى القصر وعرفه أهله فكان يوم عيد عندهم جميعاً ، ثم انتهوا إلى حجرة المائدة حيث تناولوا الغذاء وبدأ يليان حياة جديدة كلها نعيم بعد ما قاسى فى أيامه الماضية مرارة العيش والكد والنصب ، ولكنه كان يشعر فى نفسه بغبطة من تلك الأيام التى قضاها فى البؤس لأنها صقلت نفسه وهذبت طباعه وعلمته ما لم يكن يعلم ، حتى أصبح يرى نفسه أسمى من هؤلاء الذين يعاشرهم وأعلى منهم مرتبة فى الفهم والادراك .

وفى اليوم التالى بدأ يتحدث مع جوليان ويسأله عن أخبار

برلى ، فقصّ عليه قصته وما لاقاه فى سبيله حتى فقـد ثروته وهاجر معه إلى مراكش ومات بها ، فتأثر جوليان بهذه الأخبار وقال سلام على الأوفياء ، يرحمك الله يا برلى ، فلم أجـد فى الناس وفاء مثل وفائك ، ثم بدا ليليان أن يسأل عن مريسيا بعد الذى سمعه من أخبار خيانتها ، فسأل عن أخبارها الجديدة ، ولكنه أحس فى نفسه انقباضاً شديداً لتسرعه بهـذا السؤال ، ثم ساءل نفسه ، هل تشفق عليها ، أم تسأل عن العار الذى لطخ شرفك ، فلتطو أخبارها ولا أسمع لها بعد ذلك ذكراً .

جوليان : تواترت الأخبار أنها ماتت خنقاً بيد لذريق أو مسمومة ، لا أعرف هذا أو ذاك إلا أنها ماتت .

يليان : الحمد لله الذى لم يرضعنى ثديها وعافانى من رؤيتها ، ولم يربّنى فى حضانتها حتى لا تبقى لها صورة فى خيالى ، إن يكن لك جميل أحمدك عليه فهو أنك أبعدتنى عنها ، واعلم أنى لم أخسر شيئاً بهذا النفى ، ولو كنت إذ ذاك أعقل وأعلم الأقدار لطلبت هذا النفى بنفسى لما نالنى منه من فوائد تسمو عن التقدير ، وما كان بقائى الى جانبها ليغير من الأقـدار شيئاً ، خسئت خسئت فما لقيت إلا جزاءً قليلاً من عقاب خيانتها ، يا عمى إن الخائن لا ذمـة له عند الله والناس ، إنها حمأة تطايرت من قاع جهنم فلطمتنا ثم ذهبت من حيث أتت فلا كانت ولا كان حديثها ، يا عمى تركت هذه البلاد والفتنة قائمة

بين اليهود والنصارى من أهل هذه البلاد فما شأنهم اليوم .

جوليان : لا زالت الفتنة قائمة تزداد من وقت إلى وقت ، وها هو ذا لذريق باسم المسيحية يقتل أولادهم وينتهك أعراضهم ويسومهم سوء العذاب ، ويعتبر أموالهم نهباً مباحاً ودماءهم فدية ونسكا مع أنهم أذكياء حاذقون في جميع أعمالهم ، أراحنا الله من هذا الخوان الآثم على يديك .

يليان : إن أعجب من شئ ، فعجبي من هؤلاء الذين يزعمون أنهم أنصار المسيح ، ويأتون هذه المظالم والدناءات باسمه وتعصباً له ، تباً لهم ، إن المسيح كان رسول سلام ورحمة ... يأمر بالعدل والاحسان ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة ، فما بال هؤلاء يتسترون تحت اسمه ليهلكوا العالم كله ، وما يهلكونه إلا إشباعاً لشهواتهم وإرضاءاً لأطماعهم ، يا عمى لم يجعل الله هؤلاء حفاظاً على دار الدينونة يدخلون الجنة أتباعهم ويمنعون مخالفيهم ، إن الذى يدعو إلى دار الدينونة عن صدق وحق ويريد لمن يدعوه أعز ما يرتجى لنفسه يجب عليه أن يشعر الذين يدعوهم بأنه كريم حتى يستمعوا له ، وبأنه عادل حتى يصدقوه ، وبأنه بار حتى يأملوا الخير على يديه ، وإلا إذا بخل عليهم بمتاع هذه الحياة الرخيصة فكيف يثقون به . وكيف ينشدون تلك الحياة الغالية على يديه ؟! إنهم إذاً لفى ضلال مبين ، يا عمى الرجل البار هو الذى يوفر السعادة للآخرين ، وينشر العدل

والسلام فى أى مكان يحل به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، يا عمى ما للأديان وهذه المظالم التى يصبونها على الناس !.. لم لا يتركون الناس أحراراً يعيشون فى سلام ، وما الدين إلا لتهذيب وإرشاد الناس إلى الفضائل ، وإيثار الرحمة على القسوة ، وإقام العدل بين الناس ، يا عمى إنى رأيت العرب الفاتحين فى بلاد البربر يتمسكون بدينهم ويرتلون قرآنهم فى أغلب أوقاتهم ، ومع ذلك لا يؤذون أحداً ممن خالفهم ، ويحافظون على مخالفيهم فى العقيدة وعلى أموالهم كما يحافظون على أموال المسلمين وذمة المسلمين ، رأيت اليهودى يحتكم إلى قاضيهم كأنه رجل منهم ، فيقتص له من الوالى نفسه ، ولا يخشى لومة لائم ، إذا سار هؤلاء القوم على أوامر دينهم وعدالته كانوا أحق الناس بالحكم فى جميع بقاع الأرض ، وما أحراهم بأن يفتحوا هذه البلاد فيطهروها من الفسق والظلم .

رأى جوليان فى يليان رجلا من طراز آخر وأنه رجل علم وفضل وذو معارف واسعة لكنه خاف أن يكون قد ارتد عن دينه .

جوليان : أصدقنى ، هل تحولت عن الدين المسيحى ؟

يليان : لم أتحول عن الدين المسيحى لأنى درجت فى وسط مسيحى ، وكل انسان فى العالم صنيعة البيئة التى يعيش فيها من صغره ، ولأنه دين الآباء والأجداد ، فليس لأحد فضل فى اتباع دين إلا أن يعقله بنفسه ، وإنى على ذلك متدين بالدين المسيحى ،

ولكن ليس معنى ذلك أن أغلق عقلي وأتعامى عن رؤية الحقائق ، إنني إذاً بلا عقل وبلا بصر ، فلا أميز بين الحق والباطل ، وإن الله الحق منحني العقل لأعرفه به وأميز به بين الأشياء ، والبصر لأبصر به ، وليس ضرورياً أن يكون الانسان يهودياً أو نصرانياً أو بوذياً أو غيره ، ولكن الضروري أن يكون الانسان عاقلاً مفكراً يدرك الحقائق ومتى كان كذلك استطاع أن يصل إلى الدين الحق ، وأن يكون بعد ذلك باراً رحيماً ببني الانسان يخفف عنهم آلام الحياة ، فان الله لا يحاسبنا إلا على هذين . ولن يصل إلى الله أعمى ، وأنا يا عمي أكره الخلاف الديني ، والتعصب لدين من الأديان مع الجهل وعدم المعرفة ، فكن مطمئناً فأنا أحب موسى والمسيح وبقية الرسل .

جوليان : ولكني أرى لهجتك وتعاليمك ليست مسيحية .

يليان : وما عليك لو صدقت أني مسيحي ، وهذا أمر يخصني وحدي ولا يحاسبني عليه أحد من البشر ، وكل هذا مؤخر لدار الدينونة ، ولكن اسألني قبل كل شئ أن أكون إنسانا فاضلا نبيلا شريفا نافعا لبني الانسان جميعاً ، فالانسانية هي الحياة الحقة وهي أسمى المبادئ لحياة بني البشر وهي فوق الوطنية .

جوليان : إذن أأطمئن من هذه الناحية ؟

يليان : إطمئن .

ثم انصرفا لبعض شئونهما .

الفصل الحادى عشر

جهاد يليان فى الأندلس

لم يتعلم يليان على طريقة أولاد الأغنياء ، يتعلم الطفل منهم الألف والباء فيقول المعلم لقد تعلم كل حروف الهجاء ، وهكذا فى كل مرحلة من مراحل تعليمه ، ولم يترب تربيتهم بين أسباب الترف الملهية ، وبين مظاهر التفخيم والتعظيم التى تحجب تعلم أسباب الحياة ، ودراسة البيئات ، وتدع النفس مغموسة فى تيه الفخر والخيلاء ، وتحول دون استشفاف بواطن الأمور ، واستجلاء الحقائق فى جو هادئ بعيد عن الزيف والتمويه ، بل تعلم كما يتعلم أبناء الناس جميعاً ، كد وجد وتلهف على ارتشاف مناهل العلم الصحيح فاتسع عقله ، وكثرت معارفه ، وعظم إدراكه . وذاق يليان حلو الحياة ومرها ، وخالط الأسبان وخالط غيرهم من الشعوب ، وتعلم كثيراً من فلسفة العرب التى تدعو الناس إلى التمتع بما يحتاجون من العالم المادى بالقسط ، وتدعو إلى السمو بأنفسهم إلى محيط العالم العلوى ، وتطهير الروح من الأدران التى تصيبها من الانغماس فى عالم المادة ، وتدعوهم إلى الترفع عن الشهوات المهلكة ، لذلك أصبح رجلا آخر غير أولئك الأسبان فلم تعد أسباب الترف لتلهيه عن

القيام بالواجب الانسانى ولم يعد من أولئك الذين يغترون باقبال الأيام ، وهو يعلم أنها لا تستقر على حال ، فهو رجل جهاد وتجربة ، لذلك لم يلبث أن صار ذلك الرجل الذى ترمقه الأبصار ، وتحفه القلوب بالاجلال والاحترام ، فلا غرو إذ أنزله عمه جوليان من نفسه منزلة الحب والاحترام وعظيم التقدير لمواهبه وعلمه . ولما كان جوليان قد قارب سن الشيخوخة فانه عهد إلى يليان بجميع أعماله وقيادة جيوشه ، وترك له حق التصرف وحرية رسم الخطة التى يفضلها فى منازلة لذريق ، وعلى العموم فقد اطمأن له عمه تمام الاطمئنان ، واقتنع بمبادئه التى يدعو إليها .

وكان يليان إلى هذا الوقت لم يتزوج مع أنه تجاوز سن الزواج ، كما أنه إلى هذه السن لم يفتتن ببهرج النساء ، ولم يدنس نفسه أبداً ، ولعل هذا هو الطبع الوحيد الذى ورثه عن أبيه ، إلا أنه فى هذه الحياة الجديدة وبعد هذه السن لا بد من أن يفكر فى الزواج برغم أنفه ، وكانت ساره تجاوره وهى ابنة عمه ، وأول فتاة رآها فى القصر ، وخلب لبّه جمالها وأعجب برزانتها وعقلها ، وبمرور الأيام بدأ يخالط قلبه الحب ، وشعر بعاطفة قوية تدنيه منها ، وكانت هى من جانبها تبادله هذا الشعور إلا أن كلاً منهما لم يفاتح الآخر ، لأن تقاليد يليان غلب عليها الطبع العربى ، وهو السمو والبعد عن المواقف التى يغشاها الشيطان ويصعب الخروج من مآزقها ، فكان

يليان محافظاً على هذه التقاليد كل المحافظة ، لذلك لم تشعر سارة بأن يليان يبادلها أية عاطفة ، ولم يبد لها أية اشارة لا بالتصريح ولا بالتلويح ، وكان يرى أنه من شرف الطباع عدم التحدث إليها فى مثل هذه الشئون منفردة ، حتى لا تغلبها عاطفة تجرح شرف الطهارة العالية ، وأخيراً شعر يليان أنه بشر وأنه لا بد له من الزواج ، فصارح عمه بما تجيش به نفسه ، وخطب إليه ساره ، فسر جوليان سروراً عظيماً لهذا الاختيار ، وقال له هل اتفقتما ؟ فقال له لا . لأن ما تعلمته ألا تفاتح الفتاة فى مثل هذا الشأن إلا عن طريق وليها حتى يبقى الطهر سليما من عبث الشيطان ، وافق وليها أو لم يوافق ؟ لذلك لا أجيز لنفسى أن أخاطبها فى مثل هذا الشأن بنفسى .... وهنا تذكر جوليان ماضيه فتألم .... وقال إن هذه طباع جميلة ، ولكن هذا أمر يخص الفتاة وحدها ولا يجوز لأحد أن يكرهها عليه ، أما من جهتى فأنا موافق كل الموافقة ، فأجاب يليان : أنا لا أطلب يدها بغير رضاها ، ولا أحب الارتباط بها وهى لى كارهة ، ولكنى أطلب يدها عن طريقك ، فقال نعم . ونادى ساره ، وخاطبها بقوله : إن هذا ابن عمك وسيد نبيل لم تر أسبانيا أحسن منه خلقا وخلقا ، وطلب إلىّ يدك فهل توافقين ؟. فأطرقت سارة من الخجل ولم تنطق . فأعاد عليها الطلب مرة أخرى ، فقالت لم يفاتحنى بذلك يوما ما ، ولم يبد لى منه دليل عطف وحب ، فقال

جوليان : إنه رجل نشأ نشأة أخرى وله تقاليد غير تقاليدنا ، وها هو ذا يطلب إلىّ خطبتك لنفسه ، فقالت : لعله يطلبنى منك ليرضيك ، فقال : لم أعرض عليه ذلك ، ولولا أنه يحبك ما رغب فى ذلك ، فقالت : وهل تدرى عوامل نفسه التى دفعته إلى خطبتى ، أهى من هذا النوع أو ذاك ... قال : لا أدرى ، ولكن أسألك أنت أولا هل تحبينه ؟ فلم تجب . فقال جوليان : هذا الموقف يستدعى الصراحة فقالت : إذا كنت أحبه وكان قليل الميل إلىّ فلا فائدة فى هذا الحب ، فقال لها : انصرفى حتى أستوضح لك ذلك لأن مبادئه غريبة عنا ، فانصرفت . ثم قال يا يليان إن ساره على حق فهي تود أن تتأكد من أنك تحبها عن عاطفة لا تسعد الأزواج بدونها ، فالأحسن إن كنت تحبها وتريدها زوجة لك أن تشعرها بذلك ، وسوف لا تعرف ذلك إذا لم تبادلها هذه العاطفة فى جو لا كلفة فيه ولا حياء ، فقال يليان : أنا لا أحب ذلك ولكن إذا ناديتها أمامك فسأصارحها وهى رشيدة تقول ما يرضيها فنادها هنا ، فاستدعاها ، وقال لها يليان : أنا أسألك عن عاطفتك نحوى وأرجو ألا تقبليني زوجاً إلا بعد أن تتأكدى حبي لك ، فقولى بصراحة ولا ترهبي ... فاندفعت قائلة : أما من جهة عواطفى فلك أسماها وأغلاها ، قال يليان : وأما من جهتى فأنا أكثر عاطفة وأوثق حباً ورغبة فى زواجى منك ، فقال جوليان : هذا ما كنت أبغى وقد جمعنا شعور واحد .

ثم تم عقد الزواج ودخل يليان بساره فدخل السرور إلى قلبه بعد أن خيم الحزن عليه زمناً طويلا ، وكانت خير الزوجات وخير ما يشتهى من النساء ، فسعد حاله وطاب عيشه ، وظلا سعيدين ، حتى عكر صفو هذه الأسرة موت لندل ، وقد كانت عزيزة على يليان بعد أن تعرّف إليها وعلم ما كان من أمرها ، وأصبحت منه بمنزلة الأم المحبوبة ، وكان يعتقد فيها طهارتها ، ويحب منها النسك والعبادة ، فحزن عليها حزناً شديداً وتذكر بموتها سلفيا وبرلى ، فهو لا يزال يذكرهما صباح مساء ، وقد كان موتها نكبة على جوليان لأنه يحبها حباً جماً ، وكان فى آخر أيامها يحبها فوق هذا الحب حب التقديس والطهر ، إذ كانت منهم بمنزلة الملاك الطاهر والأرواح العلوية .

واحتمل يليان من الأعباء ماأنساه ساره ، إذ كان عمه جوليان يبثه كل يوم همومه وأحزانه ، وشدة حقده على لذريق الذى اغتصبهم الملك وكان ذلك كله عبئاً ثقيلاً احتمله يليان وأحب أن يوفى به ، ولكنه خالف سياسة عمه فى اظهار العداوة علانية للذريق ، ورسم لنفسه خطة الموادعة والملاينة ، لأن لذريق كان جباراً وصاحب ثروة طائلة وجيش كبير ، ورأى أنه لا فائدة له فى سلوك طريق المناوأة وفضل سياسة الدعوة السرية لتأليب الناس على حكمه ، فأصلح سياسته مع لذريق وكاتبه بالمودة ، واعتذر له عن ماضى جوليان ، وأنه لا يقر له بشئ مما حصل ، وأنه ليس مسئولا عن هذا الماضى ،

فرضى لذريق بهذه الطاعة وظل يليان يعمل فى وجهه ما يرضيه وفى غيبته ما يسوءه ، والجزاء من جنس العمل ، وقد والاه يليان بالهدايا الفريدة ، وسدد له ما يستحق من جباية الأموال حتى استنام لذريق .

ثم أنه دبر خطته مع المنـــد وأرطباش ودرمس ، واتفقوا على أن ينضم ثلاثتهم لجيش لذريق ويظهروا له الاخلاص والتفانى فى حروب أعدائه حتى يثق بهم تمـــام الثقة وأن يجاهروا عمهم بالعداء حتى تتم الحيلة ، كما أنه أوصاهم باليقظة والحذر من غدره إلى أن تحين الفرصة ، ولم يخبرهم عن بقية خطته ، فتم له ما أراد من هذه الناحية ، وكان فى عزمه أن يمهد للعــــرب فى حكم الأندلس لأنهم أجدر الناس به ، لعدلهم وحسن سيرتهم وقوتهم وفروسيتهم ، ولأنهم أقـــدر الناس على الانتقام من لذريق والمتجبرين من أصحاب الاقطاع ولكنه كان يحرص ألا يبوح بنيته هذه حتى يمهد لها ، ويدعو الناس إلى حب العرب والاعتقاد فى عدلهم ، وكان يمهد لهم الطريق سراً ، فلما أحس أن خطتـــه التى رسمها نجحت فى خطواتها الأولى ، وصار سبيل السفر إليهم ميسوراً إذ أعد جملة سفن لتنقلهم من طنجة إلى الجـــــزيرة الخضراء ، سافر بنفسه لمقابلة صديقه طارق ، فلما وصل إليه أكرم وفادته ، ولقيه لقاءً كريماً فى شوق وحنان ، مما جعل يليان يزداد حباً لهم وتعلقاً بهم ، ووثوقاً بأخلاقهم ووفائهم ، فسأله طارق عن غيبته الطـــويلة ، فقص عليه يليان حكايته

كلها ، فتعجب طارق من شأنه ، وقال حقا إن معاذاً له قلب مع ربه فهو رجل صادق لا تخيب فراسته ، هـذا ما نبأنى به يوم أن عرّفنى بك وألزمنى صحبتك ، فطلب منه يليان أن يجاوز بجنده البحر حتى يغزو الأندلس وأكد له سهولة هـذا الغزو وحببه فى هـذه البلاد ، وأخبره أنه أحكم تدبير ذلك وأن خطته على وشك النجاح ، فأطرق طارق طويلا وقال له : أنت نصرانى وتطلب هـذا ؟ فأجاب يليان : وما عليك منى وأنا أحب العرب وأعجب بهم وأخلص لهم من قلبي وفؤادى وأتمنى أن يحكمـوا الأندلس ، فيبـددوا شمل الظالمين ، ويريحوا أهلها من الظلم الذى ترسف في أغلاله أسبانيا من عهد بعيد ، وأنتم أهل حق وهم فى ضلال مبين ، وأعطيك عهـدى وذمتى ، فان نكثتُ فما دمى عليكم ببعيـد ، وضماناً لذلك أضع تحت أمرك من الآن جميع سفنى ، وأجعـل لك أرض سبتة كلها حرما مباحا حتى تجهز جيشك فيها وتعد عدتك وتمهـد لجيشك سبيل الغـزو ، وإن طلبت منى أى ضمان بعـد ذلك أستطيع أن أؤديه لك فعلت وما أنا عليك بضنين ، وإياك أن تفوت منك هذه الفرصة فانها إن فاتت لن تعود ، ففكر طارق كثيراً ثم أجابه بقوله : إنى أثق بك يا يليان وأشعر أنه سيكون لك شأن كبير ، وإن يوما من أيام الله وفى سبيل اعلاء كلمته واقامة القسط والعـدل بين الناس لهو خير من الدنيا وما فيها ، وما أقصد عن جهاد فى سبيل الله رغبـة فى حياة أو وجلا

من المـــوت ، ولـكن إلى أن ينكشف لى الأمر سأرسل لك بعض السرايا ليأتونى بخـبر بلادك ويستوثقوا ، فمكنهم من أن يطوفوا بالبلاد متسترين حتى لا يعرفهم أحـــد ويأتونى بأخبارها لأعلم سداد الرأى فيما تدعونى إليـه وحتى أكتب إلى موسى بن نصـــير وهـو موجود بالقيروان ، وأتفق معه على استئذان الخليفـة فى هذا الشأن الخطير لأنه لا يمكننى الاقدام عليـه دون أخذ رأيهم ومشورتهم ، قال يليان : لك ما تريد وارسل سراياك على الرحب والسعة حتى تطمئن لصدق قولى ، ثم استأذن فى الرجوع فأذن له .

ولما وصل وجد الكتاب التالى قد وصل إلى عمـه من أخته التى بقيت فى قصر لذريق بعد موت أمها تعيش بين بنات الاشراف فاذا به :

أى والدى وأهلى ، أهـــل العار والشنار ، لقـد تلطخ شرفكم فكيف تعيشون ، واغتصب ملككم فكيف تنامون ، واعتـدى على عرضكم فكيف لا تستحون ، أليس فيكم نخوة ، أين إباؤكم يا من ألفتم الضيم ، يا أخس النـاس وأحقرهم يامناكيـد ، كنتم ملوكا فأصبحتم عبيداً أذلاء يالسوء ما أنتم فيـــه أصبحتم مضغـة الأفـواه ، ضيعتم مجدكم ونسيتم شرف أجـدادكم ومات شعوركم ، لئن كان للأنعام حس فأنتم لا تحسون ولا تشعرون ، فكيف أذكركم بالتاريخ الأسود ، وهل يتذكر الجهلاء الذين لا يعقلون ، وكيف أسمعكم وأنتم كالبهائم السائمة لا تعقلون ولا تسمعون ، ولئن كان لى أن أخـــبر أمواتاً بخبر

فسأذكر لكم دمكم المهرق وعرضكم المنتهك ، طلبنى لذريق لنفسه فقلت لا أحل لك ، قال زوجة ، فقلت اعقد علىَّ على ملأ من الناس ، قال يا بنت الأخساء ما كان أهلك يعرفون الشرف ويتزوجون فى الكنيسة وعلى ملأ من الناس ، بل كانوا كالخنازير كلما وجدوا استباحوا ، وأخذنى عنوة ، فان كنتم تسمعون وتعقلون فاسمعوا ، فانه لم يسلبنى عفتى فحسب ولكنه أساء رجولتكم وحطم كرامتكم ، فيا ليت أمهاتكم ولدنكم نساءً .

فأهمهم هذا الكتاب هما شديدا واغتم يليان غما لا مزيد عليه ، واشتدت حميته وقال : ودين الاسلام لأزيلن ملكه وسلطانه ولأحفرن تحت قدميه . وأرسل لها امرأة من جواسيسه وطلب إليها أن تحاول الاتصال بها ، وحذرها أن يعلم لذريق من أمرها شيئاً ، وقال لها إن وصلت إليها فقولى لها إن كتابك وصل ، وعلميها المكر والخديعة ، وأن تظهر للذريق أنها مريضة وتحتال فى ذلك ، وألاّ تظهر أنها أرسلت إلينا ، حتى أصل إليها وأنفذ خطتى فى إنقاذها من بين يدى هذا الفاسق وإلا فلا سبيل الى إنقاذها ، فتمكنت المرأة من تنفيذ الخطة ونفذت هى من جانبها خطة يليان .

وبعد أيام استعد يليان لزيارة لذريق وجهز له من الهدايا الأحمال الكثيرة ثم سار إليه ، فلما مثل بين يديه قدم له منتهى الخضوع والطاعة ، وعرض الهدايا بين يديه فأعجب بها ، وأحسن يليان

التمويه عليه حتى خدع به ، ثم ذكر أنه يود استصحاب أخته معه وأخبره أنه سيعود بها بعد أن تبرأ من مرضها ويراها أهلها ويتعارفوا .. وقال أنت أب رحيم ارسلها معى لأسعد بعطفك علينا ، وألح فى الرجاء بمنتهى التذلل والانكسار ، فذهب لذريق إليها يستشيرها فتمنعت وقالت له ، إنها لا تحب الذهاب مع أخيها وهى لا تعرف لها اخوة وقد تربت فى بيته ، فلم يرتب فى أمرهما وقال لها إنى أحب أن ترافقيه لأنه من أخلص رجالنا ويعتبرنى كوالده ، وكان لذريق يظن أنه يليان الثانى « درمس » الذى طرد من بيته صغيراً فقبلت ، ثم خرج يودعهما ، فلما خرجا إلى أطراف طليطلة وأراد لذريق الرجوع بعد توديعهما قال ليليان : إذا قدمت علينا ثانية فاستفره لنا من أمثال هذه الفتاة الجميلة من بنات غيطشة وأحفاده فهن ألين النساء ، ولا تعد بها وحدها حتى لا تبقى فى وحشة ، فقال له يليان : وحق المسيح لئن عشت لأدخلن عليك بنات وضاءة الجبين لم تر مثلهن قط ، ثم قفل راجعاً يقول لنفسه هل بلغ من طغيان هذا الباغى واستخفافه بنا أن يرمينا بفسقه ولا يستحى . والله لأزيلن ملكه . والله لأزيلن ملكه . فان ملكا مثل هذا لا يدوم ، وما دخل الفسق فى بيت ملك إلا أزال سلطانه ، ثم سار بها إلى سبته وقد اشتد غيظه وحنقه على هذا الفاجر الوقح الذى استهان بهم إلى هذا الحد ، وظل يوالى طارق ويرغبه ويمهد له فى فتح الأندلس حتى وثق به

واطمأن اليه ، ونشط جوليان فى الدعوة والتمهيد حتى ثار معظم البلاد على لذريق وشنّوا الغارة عليه من أطراف البلاد ، لما انتهى إليه لذريق من ذميم الخلق والفسق والاستهانة بأعراض الناس جهاراً نهاراً .

الفصل الثانى عشر

طارق يطأ أرض الأندلس

كان طارق صديقاً ليليان ، وتوثقت عرا الصداقة بينهما لما كان يبديه من التودد وصدق الصحبة ، وتقدير العرب والميل إلى مبادئهم ، وكان يرسل الهدايا من وقت لآخر إلى طارق بعد أن هاجر إلى بلاده مرة ثانية دليلا على وفائه له ، ومع أن طارقا وثق به وصادقه ، إلا أن بقية أصحابه لا يوافقونه على هذه الثقة واستمروا على تخوف منه ، فكان يليان يحضر إليهم ويؤكد لهم إخلاصه وتشيعه لمبادئهم ، وإعجابه بدينهم ، وأنه لا بد أن يكون دين الحق لأنه يوصى بكل هذه الفضائل ، ولكنهم ظلوا على ما هم عليه من الريبة فى أمره وقالوا إنهم لا يثقون به حتى يعلن إسلامه ، فطلب اليهم أن ينتظروا حتى يتم خطته التى رسمها لنفسه ، وقال : إن الدين سلامة العقيدة واطمئنان النفس ، ولكن قلوبهم لم تطب بمثل ذلك ، وهم فى ذلك على خلاف مع طارق الذى لا يتأثر بمثل هذه الأقوال ولا يتهيب منه ، بل يزداد كل يوم ثقة به ، وأخيراً عقد طارق

عزمه على متابعة يليان فيما يدعو إليه ، وصمم على فتح الأندلس وأن يطأ أرضها غازياً فى سبيل الله ، فإن خدع فله أجر مجاهد اجتهد فأخطأ ، وإن فتحها الله على يديه فله أجره ضعفين ، وفكر فى الأمر فوجد أنه من الأفضل أن يرسل رسلا من طرفه قبل قيامه مع جيشه ، ليجوسوا خلال ديارهم متسترين وليعلموا أخبارها وطرقها ومسالكها حتى يكون على بينة منها إذا نزل بأرضها غازياً ، فاختار طريفا وأردفه ببعض رجاله ، فعبروا البحر ونزلوا البلاد على حين غفلة من أهلها وجاسوا خلالها وعلموا أمورها فخلبهم جمال هذه البلاد وكثرة خيراتها ، فرجع طريف إلى طارق وهو أكثر تلهفاً على فتحها من طارق نفسه ، وأكد له صدق فراسته فى يليان ، وأخبره بما لاقاه منه من كرم وحسن وفادة وما ذلله له من الصعوبات وأنه ذو مكانة ورياسة فى قومه .

فأرسل طارق إلى موسى بن نصير إذ كان بالقيروان يستأذنه فى فتح الأندلس ، ويطلب منه إخبار الخليفة الوليد بأرض الشام بما عزم عليه ، ويبلغه ما وصله من أخبارها وما ألقاه طريف من حال أهلها وتنابذهم فأجابه موسى بما معناه .

إنى لأشوق منكم لفتح هذه البلاد ، وما من شيء أحب إلى نفسى من الجهاد فى سبيل الله ، ولكنى أخاف عليكم ومن معكم من المسلمين أن تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فيقال خدع أغرار

الحرب ، وان هذا لأمر خطير ، لانكم ستقاتلون فى أرض يفصل بينكم وبين بقية رجالكم بحر ، وتحتاج فى غزوها جيشا كبيرا فضلا عما تحتاجه من المُدَدْ ، وأخشى ألا تكون سهلة المنال كما تظن ، واعلم أن الروم يرقبون حركات المسلمين ، ولو وجدوكم عبرتم البحر ونزلتم أرضهم لجاؤوكم من فورهم ، وأذنوا فى أهلهم فأتوكم من جميع أقطارها بما لا قبل لكم به إلا أن يأتيكم نصر الله من السماء ، واعلم أن هذه البلاد مفتاح بلادهم ، ولا تزال مطمع الفاتحين ومهبط الفتن إلى أن تقوم الساعة ، فان قدرتم عليها يوما فأنا أخشى ألا تصبروا عليها فيما بعد ، وهأنذا قد بينت لك رأيى وأوضحت لك أمرها بما لا أعتقده يغيب عن فطنتك ، فلا تغامر بالمسلمين فى سبيل يغلب فيه ظن الهلاك على توقع النجاح ، فان عزمت على غزوها وكنت على بينة من ربك فلا أمنعك من خير قد يسوقه الله للمسلمين على يديك ، ولكنى احملك نتيجة الفشل فيه ، وتعريض المؤمنين للهلاك البين ، ولولا أنى فى غزو أكره تركه لغدوت إليك حتى أبادلك الرأى فيما عن لك والسلام على من اتبع الهدى .

جاء هذا الكتاب إلى طارق فلم يثنه عن عزمه ، ولم يحوله عن رأيه ، وفى الحق أنه إذا اشتدت الرغبة بالانسان تعامى عن آراء غيره حتى ولو كانت أقرب للسداد ، ذلك لأن الله عندما يريد أمراً من

خير أو شر يجبر القلوب على إنفاذه ، فلا تستريح حتى يقع أمر الله فيهم ، ثم استدعى طارق أحد رجاله ويدعى أبا زرعه وزوّده بأوامره وأمره أن يعبر البحر مع بعض رجاله ليخبر يليان أن طارقاً عزم على الفتح وليرسل إليه السفن لتحمل الجيش والعتاد ، وأن يوطىء أرضه لقدومه ، وكان طارق يحب أن يتمكن من تجهيز رجاله والعبور بهم دفعة واحدة ولكن سفنه لا تكفى لهذا .

وفى يوم ١٢ رمضان سنة ٩٢ هجرية نزل طارق يعبر البحر إلى شبه جزيرة الأندلس ، ولكنه كان قلقاً غير هادى النفس ، لأنه لم يشعر بخطورة ما أقدم عليه إلا بعد أن ركب البحر وواجه الحقائق وانتقل من فكر يجول فى الخاطر إلى صورة العمل ، وفى كثير من الأحيان يقذف الفكر بالرجل إلى المخاطرة فلا يشعر بحقيقة ما أقدم عليه إلا بعد أن يصعب عليه الخروج منه ، وكان طارق كلما ردّد فى نفسه كتاب موسى بن نصير شعر بالمسئولية تحز فى نفسه ، فتمنى لو أنه لم يتعجل ، وانتظر موسى حتى يأذن له إذناً لا يحمله فيه مغبة أمره ، وهيهات أن يغنى هذا عن الواقع شيئاً ، وبينما الخواطر تتجاذبه من ناحية إلى ناحية إذ أخذته سنة من النوم رأى فيها النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقدم لشأنك ياطارق وارفق بالمسلمين وأوف بالعهد ، ثم رأى أنه سار أمامه هو وأصحابه

إلى أرض الأندلس ، فهب من غفوته مستبشراً واشتدت عزيمته واعتقد أن النصر سيواتيه ، فلم يعد يساوره ذلك القلق وهذا التهيب ونزل فى شبه الجزيرة فى أربعة آلاف من رجاله ، فلقيه يليان لقاءً حسناً والسرور يطفح من وجهه ، وبعد أن جهز له كل ما يحتاجه وما استطاع إليه سبيلا ، ثم قال ، إن البلاد ستناضل معك لذريق من أجل الظلم الذى حاق بهم على يديه ، ولأنه اغتصب الملك وفسق وفجر ، وأنا أعتقد أن النصر معقود لواؤه على هاماتكم ، فأنتم تطلبون حياة العز والشرف ، فسر طارق من لقائه الكريم وحسن مؤازرته ، ثم استعد للجهاد وشمر عن ساعد الجد ، ورسم خطته ، وأمر بالسفن فأحرقت فتعجب الجميع من هذا الأمر ، ومع أنهم أطاعوه فانهم لم يفهموا مغزاه ، ثم قام طارق فى الجيش خطيباً فقال :

أحمد الله الذى لا إله إلا هو إليكم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله جاء بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، أما بعد ، فاعلموا أن الدنيا ليست دار قرار وأن الآخرة هى دار القر وأن متاعها غرور ، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما ولنصيفها على

رأسها خير من الدنيا وما فيها .

أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أربأ عنها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفة الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم

ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله سبحانه وتعالى ولى إنجادكم، على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين، واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون.

فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر فى قتال لذريق وأصحابه وذكرهم بجزاء المجاهدين فى دار النعيم، وما وعدهم به من الخير الجزيل، انبسطت نفوسهم، وتحققت أمالهم، وهبت رياح النصر عليهم، وقالوا لقد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه، فامض إليهم فاننا معك وبين يديك.

ثم سار فى جيشه، وكان يليان فى حشده، يدلهم على العورات ويتجسس لهم الأخبار ويمدهم بما يحتاجون من الأقوات، ويعمل كل ما فى استطاعته ليتم لطارق ما أمله من فتح الأندلس، ويفى بما تعهد له به، وبينما هم سائرون جاءت الأخبار إلى يليان أن لذريق قادم عليهم بخيله ورجله، وأنه استنفر أهل شبه الجزيرة ونبلاءها

وأصحاب الأقطاع ليحاربوا هـذا الجيش الغازى ، فاجتمع له جيش عظيم لا يقل عن ثلثمائة ألف نفس ، فلما بلغت هذه الأخبار طارقاً ، قال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، فقال يليان لطارق لا تخش شيئاً إن النصر لقريب ، هم معه بأجسادهم وليسوا معه بقلوبهم وقد رسمت خطتى حتى أن جميع الناس يقولون الآن إن هـذا الخبيث غلب على سلطاننا وليس من بيت الملك ، وكان من أتباعنا ولسنا نعلم من سيرته إلا خبالا واضطرابا ، ولقد علموا من أمركم أنكم أهل عدل ورحمة ، وعزم وقوة فكلهم يبيتون لهذا الخبيث الفاسق شر الهزيمة ولعلهم يكفوننا أمره ، فقال له طارق : فليجمع لنا ما شاء فاننا ما نزلنا الجزيرة ابتغاء دنيا نطلبها وما عرضنا أنفسنا للهلاك لقاء أجر ، وإنما نقصد وجه الله وإعلاء كلمته والقيام بالعدل بين الناس ، وقد بلغنا فى بلاغه إلينا (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز) (وما النصر إلا من عند الله) فاطمئن يايليان فنحن أربط جأشاً وأكثر طمأنينة وإن غداً لناظره قريب إن شاء الله .

لذريق وأعوانه

ظل لذريق فى غيه وطغيانه وأهلك الحرث والنسل بعد أن غلب على البلاد واغتصب الملك ، فاستهان بأهلها وانقلب شيطاناً رجيماً فاسقاً أثيماً ، اعتدى على العرض والشرف وعبث بكل شىء فلم يعد

يخشى خالقاً ولا مخلوقاً ، ونالت على يديه أسبانيا الويلات والدمار ، واستمرت الحروب الأهلية فيها ردحاً من الزمن لا يستقر لها حال ، وكل يوم يقوم لذريق لمنازلة قوم من الثائرين عليه حتى نفذت خزائن المال .

ويروى بعض المؤرخين أنه كان فى طليطلة بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام ، عليه عدة أقفال يخفره قوم من ثقاة القوط وقد وكلوا به لئلا يفتح ، وقد عهد الأول منهم إلى الآخر فكلما تملك منهم ملك أتاه الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلا وأقفلوا به الباب من غير أن يزيلوا بقية الأقفال التى تقدمته ، فلما احتاج لذريق المال عنّ له أن يفتحه وظن أنه مملوء بالذهب ، فذهب ليفضه ويخرج ما فيه ، فقال له حراسه أيها الملك إنه لم يفعل ذلك أحد من قبلك ونهوه عن فتحه ، فقال إنما هى خرافة ومعتقدات سبق بها الأولون عن جهل فلا آبه لها ، ثم تقدم وفض أقفاله وفتحه فلما دخله ألفاه فارغاً لا شئ فيه سوى تابوت ليس فيه إلا قطعة من الجلد قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العربية متقلدى السيوف رافعي الرايات والرماح وفى أعلاها مكتوب بالأسبانية « إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح التابوت فظهرت ما فيه من هذه الصور فان هؤلاء يدخلون الأندلس ويغلبونها » فقال لذريق لئن دخلوها ليخرجون منها فان هذه البلاد

دار اغراء وفتنة فاذا ما أخذوا حظهم من اللهو انقلبوا صاغرين ، فقال أحد الحراس « والله لئن خرجوا منها فلا تزال دار هول وفتنة وحروب حتى يدخلوها ولو بعد مئات السنين » فتعجب لذريق من هذه الرقعة ومن قول الحارس وقال حديث خرافة ، ولكنه اغتم فى نفسه غماً شديداً ، ولو أنه لم يحفل بمثل هذه الخرافات ولا يعتقد مثل هذه الأوهام ، ولكنه تطير منها برغم أنفه ، ومن الناس من لا يتيامنون ولا يتطيرون والعاقل من لا يتطير فان التطير آفة ضعاف النفوس قليلى الايمان ، ولو أنه في الحقيقة نجد أن الله إذا أراد بقوم سوءاً أوقع فى قلوبهم الرعب وملأ قلوبهم بالهواجس وأنذرهم بعقابه ، فاذا أقبل عليهم النذير تطيروا من كل ما يصادفونه فى طريقهم من حيوان أو نبات أو ما يقع فى أنفسهم من خزعبلات فلا يحكمون عقولهم ، ولا يملكون إرادتهم فيتطيرون ، فسبحان من لا يتغير ولا تساوره غير النفوس ، نرجع بحديثنا الى لذريق ، خرج لذريق من حرب إلى حرب ولم يهدأ له بال ولو أن النصر كان يلازمه ، ولما أوشك ملكه أن يزول قامت فى وجهه بلاد البشكنس وسارت لمحاربته ، فجهز جيشاً عظيماً وسار به لاخضاعها فلما قرب منها لحق به (تدمير) أحد أتباعه المخلصين .

تدمير : إنى رأيت جيشاً جراراً من العرب دخل البلاد وكلما دخل بلداً من بلادنا فتحها عنوة ، برجال يقتحمون الموت اقتحاماً

كالليوث الضوارى لم أر أبسل منهم ولا أشد قوة .

لذريق : ومن أين أتوا ؟

تدمير : والله لا أعلم ، أهبطوا من السماء أم خرجوا من الأرض ، هم كالصاعقة ، ما أتوا على شئ إلا جعلوه كالرميم .

لذريق : هوّن على نفسك أمرهم ، فكم حاربت وأنى لهم بلذريق الذى دوخ البلاد وأوقع الرعب فى القلوب ، سيخرجون من بلادنا ، ويفرون من أمامنا ، كما تفر السائمة أمام الأسد .

تدمير : خذ لنفسك حذرها ، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما فى يدك ، وما تحت قدميك ، ولا يرضون بغير ملكك بديلا ، وفيما بلغنى أنهم أحرقوا سفنهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها وصفوا صفوفهم فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات إذ ليس لهم فى أرضنا مهرب .

فارتاع لذريق من كلامه ، وقد وصلته الأخبار تترى عن عظيم شجاعتهم ، وأنهم أوغلوا فى البلاد ، وفتحوا معظمها ، فنادى النفير النفير ، ثم صاح فى أهل البلاد ، وقال يأهل أسبانيا إنسوا الماضى وانزعوا الأحقاد من قلوبكم حتى لا يحتل العدو أرضكم وجهزوا جيوشكم وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة وأخرجوا إليهم بدروعكم وأبهى حللكم وتيجانكم وجواهركم فإنهم أهل بادية فيرهبونكم من هذه العظمة التى تلاقونهم بها ، وها هما الند وأرطباش أولاد الملك

غيطشة قد انضما إلينا وبعد استخلاص البلاد سنتنازل لهم عن الملك ، فاياكم وخذلانى ، وعدم متابعتى ، فاجتمع له جيش كبير يربو على ثلاثمائة ألف وركب هودجه وسار لملاقاة العرب ، فلما بلغ مكان قصر قديم فى غردقه (قرطبه) رأى العرب مقبلين إليه لا يهابون جموعه ، فلما تراءى الجمعان نادى فى قومه أن أعينونى عليهم ، واجمعوا أنفسكم وأحزموا أمركم فلم أر مثل هؤلاء القوم ، فما أظن النجاة من أيديهم بيسيرة ، وبينما هم على هذه الحال انقض طارق بنفسه انقضاض الصاعقة عليهم ، فلما أن عرف مكانه من قلب جيشه هجم برجاله هجوم الأبطال فكشفوا جيش لذريق عنه فعلم قومه أنه لا محالة مغلوب ، فآثروا التخلص من ظلمه ونادوا فى جيشهم أن ارجعوا وفوزوا من الغنيمة بالاياب ، وكان طارق قد أحكم الاصابة وسدد المرمى ، وانقض على خصمه لذريق انقضاض الأسد على فريسته ، وطعنه برمحه فأرداه قتيلا وتركه يحتضر وزحف بجيشه المنتصر وراء الجيش الذى ولى الدبر ، فوقف يليان يبصق فى وجه لذريق ، ويقول أيها الخنزير الخائن لقد لقيت جزاء ماصنعت ، الآن انتقمت لشرفى وشرف آبائى وأجدادى وطهرت بلادى من رجس الظالمين .

﴿ تمت والحمد لله ﴾

٢٠ مارس سنة ١٩٣٩

قصيدة الشاعر الكبير احمد محرم فى القصة

هذا هو القصص :

أدرِ الحديث، وطف على الأقوام ... من شيّقٍ طرب الفؤاد وظام
هذى جوانحنا، وتلك قلوبنا ... ملأى الجوانب من هوًى وغرام
جدّدْ (لأندلس) وطيبَ زمانها ... عهداً طوته سوالف الأيام
واذكر حديث الفاتحين ومارعوا ... لقطينها من حرمة وذمام
قوم أمضّهم البلاء، وهدّهم ... ظلم الملوك، وقسوةُ الحكّام
بيعُوا لقومٍ فاسقين فما رعوا ... حقّ العبيد وحرمة الخدام
فى صورة الانسان، إلاّ أنّهم ... نزلوا هناك منازلَ الانعام
هى أمّة تشقى لينعم غيرها ... ويعيش فى دنيا من الآثام
صدعت جنود الله من أغلالها ... وتداركتها رحمة الاسلام
دين محا للظلم كل شريعة ... وأتى بخير شريعة ونظام
صلح الرعاة، فودعت فى ظلهم ... مرعى الهموم، ومورد الآلام
واستقبلت للعدل عصراً صالحاً ... ما فيه من عسفٍ ولا إرغام
عصر أتيح لها على يد (فاتح) ... سمح السّيوف، مبارك الأعلام
حفظ المحارم والحقوق لأهلها ... وحمى مقاتلها، فنعم الحامى
وضح الهدى للحائرين، فقل لهم ... لا عذر للأعمى، ولا المتعامى

ظفروا بحرب من كتائب (طارق) كانت (لأندلس) بشير سلام
نشر الهدى والنور فى أرجائها فبدا السبيل ، وزال كل ظلام
بطل مضى يرمى العباب بهمة جاشت زواخرها ، وبأس طام
أخذ السفين بموجة من بطشه حمراء ما تزداد غير ضرام
ودعا الجنود ، فقال : يا قوم انظروا البحر خلفى ، والعدو أمامى
لا رأى إلا الحرب تستقصى المدى حتى أفوز بمطلبى ومرامى

* * *

يا صاحب القصص الحكيم : شهادة ” من مؤمن برسالة الأقلام
أنصفت دين النور ، فانتبهت له أحلام قوم فى الظلام نيام
وذهبت تذكر للألى اتبعوا العمى ما فيه من سنن ومن أحكام
ووصفت عاقبة الغرور وما جنى سفه العقول ، وخفة الأحلام
وبنيت للأخلاق صرحاً عالياً ترتد عنه معاول الهدام
اكتب وقل ، وارفع لقومك ذكرهم هذا هو القصص البديع السامى

شكر واعتـــذار

أشكر من صميم قلبي جميع أصدقائي وأبناء وطني الذين اشتركوا في كتابي هذا قبل إصداره حسن ظن منهم حتى أوشكت الطبعة الأولى على النفـــاد وإني أمام هذا التأييد أسأل الله أن يجازيهم عني أحسن الجزاء ، وأعتذر عما عساي أن أكون قد قصرت فيه ، وأعتذر أيضا عن بعض أخطاء مطبعية لا تخفى على فطنـــة القارئ سنتداركها إن شاء الله في الطبعة التالية ؟

المؤلف

